نحو تأصيل إسلامي للتاريخ

الأُمَّة المُسْلِمَة

أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ

الطريق الى بيت المقدس

"القضيَّة الفلسطينيَّة"

الجزء الأول

إعداد

الدكتور جمال عبد الهادي محمد مسعود

الوفاء للطباعة والنشر

الطريق الى بيت المقدس

"القضيّة الفلسطينيّة"

نحو تأصيل إسلامى للدراسات التاريخية
الأمة المسلمة

أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ

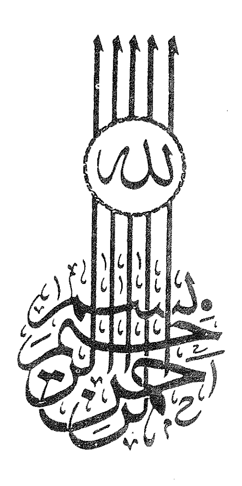
الطريق الى بيت المقدس

"القضية الفلسطينية"

الجزء الأول

إعداد
الدكتور جمال عبد الهادى محمد مسعود

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة. ش.م.م



الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على إمام المجاهدين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، القائل : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ من قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فى الأَرْضِ ما لم نُمَكِّنْ لَكُمْ ، وأرسلنا السَّمَاءَ عليهم مدرارا وجعلنا الأَنْهَارَ تجرى من تحتهم ، فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ﴾[1] . ونشهد أن محمدا عبده ورسوله ، بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ؛ فجزاه الله عنا وعن أمة الإسلام خير ما جازى نبيا عن أمته . اللهم صل وسلم وبارك على هذا النبى الكريم وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) الأنعام : ٦ .

« الطريق إلى بيــت المقـــدس »

تقديــــم

حينما نعنون بحثنا « الطريق إلى بيت المقدس » ، لا يعنى ، أن بحثنا ، سينصب فقط على بيت المقدس ، ولكنه سينصب أيضا على بيان معالم الطريق ، الذى يجب أن يسلكه المسلمون المجاهدون ؛ لإقامة حكم الله على أرض الشام(١) كلها ؛ فذكرنا هنا الجزء « وهو بيت المقدس » من باب التنبيه على الكل بأهم جزء من أجزائه .

هذه الأرض المقدسة قد تعرضت للغصب مرات كثيرا ، على مدار تاريخها الطويل ، على يد أقوام أطلق عليهم القرآن الكريم اسم « قوما جبارين » ، ومرة أخرى سماهم « جالوت وجنوده » ومرات كثيرة أخرى على يد الآشوريين والكلدانيين والفرس واليونان والروم ، والأوربيين (الفرنج)(٢) الذين تستروا بستار الصليب ، والعبيديين ، والمغول ، والتتار ، وغيرهم .

وفى كل مرة كانت تتعرض فيه بيت المقدس للغصب كانت تنكس فيها راية لا إله إلا الله ، وتعطل شريعة الله ، ويطارد فيها المسلمون العاملون لنصرة دين الله .

---

(١) أرض الشام حدودها من الغرب بحر الروم (البحر المتوسط) ، ومن الشرق البادية من إيلة إلى الفرات ثم من الفرات إلى حد الروم ، ومن الشمال بلاد الروم (تركيا حاليا) ومن الجنوب حد مصر وتيه بنى إسرائيل ، وآخر حدودها مع مصر رفح . (المسالك والممالك) للأصطخرى ، ص ٤٢٣ ، ومعجم البلدان لياقوت الحموى ، جـ ٥ ، ص ٢١٩ .

وهى الآن الأرض التى تضم سورية ولبنان وفلسطين والأردن .

(٢) تطلق المصادر الإسلامية اسم الفرنج أو الفرنجة على أبناء أوروبا الذين قاموا باغتصاب العالم الإسلامى منذ نهاية القرن الخامس الهجرى (الكامل فى التاريخ ، جـ ٩ : البداية والنهاية ، جـ ١٢) أما المراجع الحديثة فتطلق عليهم اسم الصليبيين على اعتبار أنهم تستروا بالصليب فى اغتصابهم لبلاد المسلمين .

وفى كل مرة كان الجيل الجبان الذى كان ينتسب إلى الإسلام ، والذى قد يقاتل أحيانا .. من أجل الأرض ، أو من أجل المال ، أو من أجل الأبناء .. لا يستطيع أن يهزم هذه الهجمة العدوانية على الأرض التى بارك الله فيها للعالمين ، فكان يكتب عليه التيه والضياع ، إلى أن يقيض الله سبحانه وتعالى جيلا مجاهدا يسترد الأرض المباركة ليقيم عليها دين الإسلام ، ويقيم حياة الناس على نظام الله وشرعه .

كما تعرضت هذه الأرض المباركة للغصب مرة أخرى ، بعد انهيار الدولة الإسلامية التى كان يقوم عليها آل عثمان ، وعلى وجه الخصوص بعد إقصاء السلطان عبد الحميد الثانى عن الخلافة عام ١٣٠٨ هـ/١٩٠٨ م ، على يد اليهود يعاونهم الفرنسيون والانجليز ظاهراً ويساندهم (الشيوعيون الملحدون) والحاقدون من الصليبيين تحت سمع وبصر ما تسمى بالمنظمات الدولية بداية بعصبة الأمم ونهاية بما يسمى بالأمم المتحدة ومجلس الأمن وغيرها .

إذن هذا الغصب ، لبيت المقدس قد حدث بعد انهيار الخلافة ، السياج الحامى للأمة الإسلامية وفى غفلة من أبناء المسلمين ، بعد أن ابتعدوا عن دينهم ، ونحوا كتاب ربهم وسنة نبيهم عن حياتهم .

لقد اغتصب اليهود بلاد الشام ... التى بارك الله فيها للعالمين ... وعليها أقاموا دولة يهودية ، تحكم فى أرض الإسلام ، وأبناء الإسلام ، بغير شرع الإسلام ، وتنزل بأهله وجيرانه وإخوانه أبشع أنواع الانتقام والإبادة . وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ كيف وإن يَظْهَرُوا عليكم لا يَرْقُبُوا فيكم إلًّا ولا ذِمَّة ، يُرضُونَكُم بأفواههم وتأبي قُلُوبهم وأكثرهم فاسقون ... اشتروْا بآيات الله ثَمنًا قليلاً فَصَدُّوا عن سَبيله إنَّهُمْ ساء مَا كانُوا يَعْمَلُونَ . لا يَرْقُبُونَ فى مُؤْمِنٍ إلًّا وَلَا ذِمَّةً ، وأولئك هم المعتدون ﴾ (١) .

---

(١) التوبة : ٨ ــ ١٠ .

وهدف أعداء الإسلام ، من وراء اغتصاب أرض الإسراء والمعراج ، هو جزء من مخطط الكيد الشيطانى والتآمر العالمى ، اليهودى والصليبى والملحد ، لإحكام السيطرة على العالم الإسلامى ، واستغلال خيراته وثرواته بعد رد أهله كفارا حسدا من عند أنفسهم ، ﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾[1] . وذلك كخطوة على الطريق نحو إقامة دولة يهودية عالمية[2] – لامكنهم الله من ذلك – تتحكم فى بنى آدم على امتداد رقعة الأرض التى يحيون عليها .

ودراسة هذا الحدث الخطير ، والمؤامرة الدولية التى تستهدف الأمة المسلمة ودينها وعقيدتها ، له هدف ، هذا الهدف هو :

معرفة الطريق الذى يجب أن يسلكه المسلمون إلى بيت المقدس ، لإنهاء هذا العدوان اليهودى العالمى الشرس ، وإعادة حكم الإسلام إلى الأرض التى بارك الله فيها للعالمين .

---

(١) البقرة : ٢١٧ .

(٢) وهذا الهدف يكشف عنه ما تسمى بالتلمود « الذى غرس فى اليهود آمالا كبارا فى السيطرة على العالم ، وطلب منهم اتخاذ كافة الوسائل المشروعة وغير المشروعة ، وصولا إلى الهدف النهائى : وهو التسلط على العالم » . وقد ورد فى التلمود على لسان حاخامات اليهود وهم يرسمون سياسة المستقبل :

« يجب على كل إسرائيلى أن يبذل جهده لمنع تملك باقى الأمم فى الأرض حتى تبقى السلطة لإسرائيل ، فإذا لم يتيسر لهم ذلك اعتبروا منفيين وأسرى ، وإذا تسلط غير الإسرائيليين على أوطان إسرائيل ، حق لهؤلاء أن يندبوا ويقولوا (يا للعار ، يا للخراب) ، ويستمر ضرب الذلة والمسكنة على بنى إسرائيل حتى ينتهى حكم الأجانب ، وقبل أن تحكم إسرائيل نهائيا على باقى الأمم يلزم أن تقوم الحرب على قدم وساق ، ويهلك ثلث العالم » .

ويعتبر اليهود كتاب التلمود كتابا منزلا ، وأفضل مما يسمونها التوراة ، وأجدر بالاحترام ، حتى أن الحاخامات أدخلوا فى روع اليهودى أن من يخالف ما يسمونها التوراة يغفر له ، أما من يخالف التلمود فلن يغفر له . (انظر : سياسة الاستعمار والصهيونية ، ص ٧ – ٩ ؛ أصول الصهيونية فى الدين اليهودى ، من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالمية ، القاهرة ١٩٦٣/١٩٦٤ م ، ص ٥٩ . تأليف د . إسماعيل راجى الفاروقى ؛ خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية ، القاهرة ، دار القلم ١٩٦٥ م ، الفصل السادس ، ص ٦٩ – ١٠٥ ، تأليف عبد الله التل ، ومن التلمود ، من مطبوعات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ص ٢٥ ، ٧٩) .

وذلك من خلال تأصيل الأحداث التى تعرضت لها المنطقة تأصيلا إسلاميا اعتمادا على :

- القرآن الكريم .
- سنة النبى محمد ﷺ .
- سنة الخلفاء الراشدين .
- ثم فى ضوء الأحداث التى تعرض لها العالم الإسلامى على مدار تاريخه الطويل ، اعتمادا على الله ثم على المصادر والمراجع الموثقة .

وبعد ذلـك فإن أخطأنا فمن أنفسنا ، وإن أصبنا فمن الله سبحانه وتعالى ، وما توفيقنا إلا بالله ، عليه توكلنا ، وإليه أنبنا ، وإليه المصير .

المؤلف

الفصـــل الأول

بلاد الشـام عبر التاريـخ

(الجـــزء الأول)

منذ أقدم العصور « على عهد آدم وإبراهيم عليهما السلام » .

- الله سبحانه وتعالى يبارك بيت المقدس .
- آدم يبنى المسجد الأقصى .
- إبراهيم عليه السلام وذريته المسلمة ، أئمة على الأرض المباركة .

بيت المقدس هى عاصمة الشام منذ زمن لا يعلمه إلا الله عز وجل ، وهى الأرض التى وصفها الخالق عز وجل : (بالمباركة) ، فى قوله تعالى : ﴿ ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين ﴾[1] .

يقول الإمام أبو عبد الله محمد القرطبى : « الأرض ؛ أرض الشام (سورية وفلسطين) ، وقال ابن عباس : وقيل لها مباركة لكثرة خصبها وثمارها وأنهارها ، ولأنها معادن الأنبياء ، وقيل بيت المقدس لأن منها بعث الله أكثر الأنبياء »[2] .

وبيت المقدس تضم موضعا من المواضع التى لا تشد الرحال إلا إليها[3] ، هذا الموضع هو المسجد الأقصى ، الذى بارك الله حوله ، يقول الله تعالى :

---

(١) الأنبياء : ٧١ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن : جـ ١١ ، ص ٣٠٥ .

(٣) لحديث رسول الله ﷺ : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجد رسول الله ﷺ ، ومسجد الأقصى » ؛ رواه البخارى ، كتاب فضل الصلاة فى مسجد مكة والمدينة .

﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾[1] .

وقد ورد فى تفسير هذه الآية : ﴿ باركنا حوله ﴾ : قيل بالثمار وبمجارى الأنهار ، وقيل : بمن دفن حوله من الأنبياء والصالحين ، وبهذا جعله مقدسا . وروى معاذ بن جبل عن النبى ﷺ أنه قال : « يقول الله تعالى : يا شام أنت صفوتى من بلادى ، وأنا سائق إليه صفوتى من عبادى »[2] .

وقد ثبت فى صحيح مسلم عن أبى ذر ، قال : سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجد وضع على الأرض قال : « المسجد الحرام » . قلت : ثم أى ؟ قال : « المسجد الأقصى » . قلت : كم بينهما ؟ قال : « أربعون عاما ، ثم الأرض لك مسجد ، فحيثما أدركتك الصلاة فصل » .

كما أخرج النسائى بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى ﷺ : « أن سليمان بن داود عليه السلام لما بنى بيت المقدس سأل الله خلالا ثلاثة : حكما يصادف حكمة فأوتيه ، وسأل الله عز وجل ملكا . لا ينبغى لأحد من بعده فأوتيه ، وسأل الله عز وجل ، حين فرغ من بناء المسجد ، ألا يأتيه أحد ، لا ينهزه إلا الصلاة فيه ، أن يخرجه من خطيئته كيوم ولدته أمه فأوتيه . فجاء إشكال بين الحديثين ، لأن بين إبراهيم وسليمان آمادا طويلة . قال أهل التواريخ : أكثر من ألف سنة فقيل : إن إبراهيم وسليمان عليهما السلام إنّما جددوا ما كان أسسه غيرهما . وقد روى أن أول من بنى البيت آدم عليه السلام ، فيجوز أن يكون غيره من ولده وضع بيت المقدس[3] . من بعده بأربعين عاما ، ويجوز أن تكون الملائكة أيضا بنته بعد بنائها البيت بإذن الله ، وكل محتمل ، والله أعلم »[4] .

---

(١) الإسراء : ١ ، وقد سمى الأقصى لبعد المسافة بينه وبين الكعبة ، (والمسجد الأقصى هو بيت المقدس) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٢ – ٢٤ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن : جـ ١٠ ، ص ٢١٢ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى ، جـ ٤ ، ص ١٣٦ ، ١٣٧ . تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٣٨٣ .

(٤) فتح البارى ، جـ ٦ ، ص ٤٠٨ – ٤٠٩ .

وأورد الإمام ابن حجر قول ابن الجوزى : « وجوابه أن الإشارة إلى أول البناء ، ووضع أساس المسجد ، وليس إبراهيم أول من بنى الكعبة ، ولا سليمان أول من بنى بيت المقدس ، فقد روينا أن أول من بنى الكعبة آدم ، ثم انتشر ولده فى الأرض ، فجائز أن يكون بعضهم قد وضع بيت المقدس ، ثم بنى إبراهيم الكعبة بنص القرآن ، وكذا قال القرطبى : أن الحديث لا يدل على أن إبراهيم وسليمان لما بنيا المسجدين ابتدآ وضعهما لهما ، بل ذلك تجديد لما كان أسسه غيرهما » . ويضيف الإمام ابن حجر : « وقد وجدت ما يشهد له ويؤيد قول من قال : إن آدم هو الذى أسس كلا من المسجدين » .

وعلى هذه الأرض المباركة ، وهب الله إبراهيم عليه السلام ، ذرية مسلمة صالحة طيبة ، كانت تحكم حياتها ، وحياة المجتمع الشامى بالمنهج الإسلامى الربانى :

﴿ **ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين** : (أى وكلا من إبراهيم وإسحاق ويعقوب جعلناه صالحا عاملا بطاعة الله) **وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا** (أى رؤساء يقتدى بهم فى الخيرات وأعمال الطاعات ، ومعنى بأمرنا : أى بما أنزلنا عليهم من الوحى والأمر والنهى ، فكأنه قال : يهدون بكتابنا . وقيل : المعنى يهدون الناس إلى ديننا بأمرنا إياهم بإرشاد الخلق ، ودعائهم إلى التوحيد) **وأوحينا إليهم فعل الخيرات** (أى أن يفعلوا الطاعات) **وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين** (أى مطيعين)[1] . **ولوطا آتيناه حكما وعلما** (والحكم : النبوة ، والعلم : المعرفة بأمر الدين وما يقع به الحكم بين الخصوم) **ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث** (يريد : سدوم . ابن عباس : كانت سبع قرى قلب جبريل عليه السلام ستة وأبقى واحدة للوط وعياله ، وهى زغر التى فيها الثمر من كورة فلسطين إلى حد الشراة[2] ، ولها قرى كثيرة إلى حد نجد والحجاز) **إنهم كانوا قوم سوء فاسقين** (أى خارجين عن طاعة الله) **وأدخلناه فى رحمتنا** (أى النبوة : وقيل فى الإسلام) **إنه من الصالحين** ﴾[3] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ، جـ ١١ ، ص ٣٠٥ . (٢) الأنبياء : ٧٢ - ٧٥ ، جبل بنجد لطىء .
(٣) الأنبياء : ٧٤ - ٧٥ ، الجامع لأحكام القرآن ، جـ ١١ ، ص ٣٠٩ .

الإســـــلام
يحكم حياة بــلاد الشـــام

إبراهيم عليه السلام ، نبى مسلم ، وإمام مسلم ، وإلى الإسلام كان يدعو ، وبه وصى أبناءه ﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوبُ ، يا بَنىَّ ، إنَّ الله اصطفى لكم الدين ، فلا تَمُوتُنَّ إلَّا وأنتم مُسْلِمُون ﴾[1] .

أى أنَّهم لم يكونوا هودا أو نصارى :

﴿ وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا ، قل : بل ملة إبراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين . قولوا : آمنا بالله وما أُنْزِلَ إلينا وما أُنْزِلَ إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أُوتى موسى وعيسى ، وما أُوتِىَ النبيُّون من ربهم ، لا نُفرِّقُ بين أحد منهم ، ونحن له مُسْلِمُون ﴾[2] .

حكام مسلمون على الأرض المباركة :

وحينما كان الإسلام يحكم حياة الأمم والشعوب التى كانت تعيش على الأرض المباركة (أرض الإسراء والمعراج) كان هنالك أئمة مسلمون نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر ، إبراهيم عليه السلام .

يقول الله تعالى : ﴿ وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّهُ بكلمات فَأَتَمَّهُنَّ ، قال : إنِّى جَاعِلُكَ للناس إمَاماً قال : ومن ذُرِّيَّتِى ؟ قال : لا ينال عهدى الظالمين ﴾[3] .

---

(١) سورة البقرة : آية ١٣٢ .

(٢) سورة البقرة : ١٣٥ - ١٣٦ .

(٣) سورة البقرة : آية ١٢٤ ، يقول الإمام أبو عبد الله محمد الأنصارى القرطبى : (كل من كان ظالما ، لم يكن نبيا ولا خليفة ، ولا حاكما ولا مفتيا ، ولا إمام صلاة ، ولا يقبل عنه ما يرويه عن صاحب الشريعة ، ولا تقبل شهادته فى الأحكام) ؛ الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٢ ، ص ١٠٩ ؛ وذلك يؤكد أن إبراهيم عليه السلام لم يكن ظالما وإلا ما استحق أن يكون إماما .

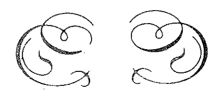
ونذكر منهم لوطا[1] عليه السلام ، الذى بعث على جزء من هذه الأرض المباركة ، وكان يدعو إلى الإسلام : ﴿ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾[2] .

وعلى هذه الأرض المباركة ، رُزِقَ إبراهيمُ عليه السلام بإسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب عليهم السلام ، قال الله عز وجل :

﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب نَافِلَةً ، وَكُلاًّ جعلنا صالحين ، وجعلناهم أَئِمَّةً يَهْدُونَ بأمرنا ، وأَوْحَيْنَا إليهم فِعْلَ الخيرات وإقامَ الصلاة ، وإيتاءَ الزكاة ، وكانوا لنا عابدين ﴾[3] .

وعلى هذه الأرض المباركة رزق يعقوب (إسرائيل) بأبنائه الاثنى عشرَ (ومنهم الأسباط)[4] الذين كان من بينهم أئمة وحكام على بيت المقدس .

وهذا يعنى أن بيت المقدس كانت محكومة بنظام الإسلام ، الذى يقوم على تنفيذه أئمة وحكام مسلمون .



---

(١) نزل لوط عليه السلام بمدينة سدوم من أرض غور زغر (وهى مشهورة ببلاد الغور ومتاخمة لجبال بيت المقدس ، ومكانها الآن البحر الميت . (تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٣٤٤ ، الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٧ ، ص ٢٤٣ - ٢٤٧ ، جـ ٩ ، ص ٨١ - ٨٤ .

(٢) الذاريات : ٣٥ - ٣٦ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ٢٣٦ .

(٣) الأنبياء : ٧٢ - ٧٣ .

(٤) وهؤلاء الأنبياء كانوا على الإسلام ، انظر : أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، ذرية إبراهيم عليه السلام . تأليف د . جمال عبد الهادى ، ودكتورة وفاء محمد رفعت ، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة ؛ دار طيبة بالرياض .

الجـــزء الثانـــى

على عهد أبناء يعقوب (إسرائيل عليه السلام)

إلى عهد يوشـــع بن نـــون

والمصادر الإسلامية – أى القرآن الكريم وحديث الرسول محمد ﷺ – تثبت أن إمامة المسجد الأقصى ، وبالتالى زمام الأمر ، على هذه الأرض المباركة ، استمرت فى يد الصالحين من ذرية إبراهيم عليه السلام (أى من أبناء يعقوب « إسرائيل » بن إسحاق عليهم السلام) .

وفى فترة من الزمان – حوالى منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد تقريبا شاءت إرادة الله عز وجل ، أن ينتدب من هذه الذرية الطيبة التى تكاثـرت على أرض الإسراء والمعراج ، نبيا مسلما ، من أبناء يعقوب عليه السلام ، ليدعو شعب مصر إلى الإسلام ، وفى أثناء حكم هذا النبى الكريم لمصر ، ترك يعقوب عليه السلام ، وبعض أبنائه بلاد الشام إلى مصر ، ليقيم إلى جوار يوسف عليه السلام .

وقبل أن يغادر يعقوب – عليه السلام – بيت المقدس ، ترك الإمامة والولاية فى أيدى بعض أفراد أسرته من المسلمين ؛ لأنه ليس من المتصور أن يترك يعقوب ، النبى المسلم ، الأرض المباركة التى درج عليها أبوه وجده عليهما السلام فى غير أيد مسلمة ، أو يكون قد تركها بغير إمامة ، وهو يعلم أن الإمامة جزء من نظام الإسلام ..

ومصر وبلاد الشام كانت فى ذلك الزمان أرضا واحدة ، بدليل أن أهل الشام كانوا يمتارون من مصر أثناء المجاعة التى حلت بمصر وبلاد الشام ، وكانت

القوافل تذرع المنطقة ما بين مصر وبلاد الشام دون قيود أو عوائق[1] .

قوم جبارون يغلبون على بيت المقدس :

ولكن إمامة المسجد الأقصى ، أو بيت المقدس لم تظل دواما فى أيدى المسلمين من ذرية إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ففى فترة من الزمان غلب أقوام جبارون على هذه الأرض التى بارك الله فيها للعالمين ، وكان ذلك فى فترة تعاصر رسالة موسى - عليه السلام - فى مصر .

موسى - عليه السلام - يقود بنى إسرائيل لتحرير بيت المقدس :

وأدرك موسى - عليه السلام - الواجب الملقى على عاتقه ، وهو ضرورة أن تكون بيت المقدس فى أيدى المسلمين ، ليقيموا عليها نظام الله وشرعه ، فترك مصر ، واتجه إلى شبه جزيرة سيناء فى طريقه إلى الأرض المباركة لتحريرها ممن غلب عليها .

الجيل الجبان يرفض الدخول بحجة أن فيها قوما جبارين :

وفى أثناء مسيرة الجيش ، وقف موسى خطيبا فى قومه يذكرهم بنعم الله عليهم ، ومنها أن الله قد مكن لهم فى الأرض ، وجعل فيهم أنبياء وملوكا ، وآتاهم ما لم يؤت أحدا من العالمين ، ويطلب منهم استحضار نية الجهاد فى سبيل الله ، ودخول الأرض المقدسة التى كتبها الله للمسلمين المجاهدين ، كما حذرهم نبيُّهم - عليه السلام - من النكوص على الأعقاب ، وتولى الأدبار ؛ فينقلبوا خاسرين ... فى الدنيا بحرمانهم من دخول الأرض المقدسة ، وفى الآخرة بإدخالهم النار .

ولكن الجيل الذى استمرأ حياة الذِّلَّةِ والمسكنة على يد فرعون مصر ، جحد بنعمة ربه ، ولم يستجب لدعوة رسوله ، لدخول الأرض المقدسة بحجة أن فيها قوما جبارين ، وأنه لا طاقة له بجهادهم ، وأنه لن يدخلها إلا بعد أن يخرج القوم منها .

ولم يحرم الصف المسلم ، من رجال أتقياء ذكَّرُوا أبناء هذا الجيل بأن النصر

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٩ ، ص ٢٢٠ ، ٢٥٩؛ سورة يوسف عليه السلام .

بيد الله ، وأن عليهم فقط أن يتوكلوا على الله ، ويفوضوا أمرهم إليه ، ويدخلوا بيت المقدس على عَدُوِّهِمْ ، لأن مجرد دخولهم سيؤدى إلى غلبتهم وهزيمة عدوهم .

ولكن الجيل الجبان ، رفض النصيحة ، بل وتطاول على موسى وربه سبحانه وتعالى .

وهنا طلب موسى – عليه السلام – من ربه أن يفرق بينه وبين قومه الذين كفروا ، حتى لا يشمله غضب الله عز وجل معهم .

وعاقب الله الجيل الجبان ، الذى فضل أن يعيش طريدا شريدا ، على أن يعيش عزيزا أو يموت شهيدا ، عاقبه بالتيه ، والطرد من رحمة الله سبحانه وتعالى .

ويحكى الله – عز وجل – هذه الحادثة بقوله :

﴿ وإذ قال موسى لقومه : يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا ، وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ، ولا ترتدوا على أدباركم ، فتنقلبوا خاسرين . قالوا يا موسى إنَّ فيها قوما جبارين ، وإنَّا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فإنَّا داخلون . قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما : ادخلوا عليهم الباب ، فإذا دخلتموه فإنَّكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين . قالوا : يا موسى ، إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا إنَّا ها هنا قاعدون . قال : رب إنى لا أملك إلَّا نفسى وأخى ، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال : فإنَّها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض ، فلا تأس على القوم الفاسقين ﴾[1] .

وهنا يجدر بنا وبالمسلمين – داخل وخارج الأرض المحتلة – أن يقفوا أمام هذا النص القرآنى وأن يتملوا ما فيه ، لأنه المفتاح لأزمتنا المعاصرة ، وفيه معالم الطريق الذى يجب أن يسلكه المسلمون لاسترجاع الأرض المباركة .

---

(١) المائدة : ٢٠ – ٢٦ ، بعثة موسى عليه السلام كانت فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد تقريبا .
﴿ أنعم الله عليهما ﴾ . يقول الإمام أبو عبد الله القرطبى ، أى بالإسلام أو باليقين أو بالصلاح ، الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٦ ، ص ١٢٧ ، ١٢٣ إلى ١٣٣ .

الدروس المستفادة :

بعد هذا العرض الربانى ، لهذه الحادثة التاريخية :

- قوم جبارون يغتصبون بيت المقدس .

- الله ينتدب موسى عليه السلام ليقود قومه لاستعادة الأرض المباركة .

- القوم يرفضون .

- الله سبحانه وتعالى يكتب عليهم التيه والضياع فى الدنيا وعذاب النار فى الآخرة .

- ومن خلال هذا العرض الربانى ، لهذه الواقعة على محمد - ﷺ - وصحبه - رضوان الله عليهم -، وعلى المسلمين فى كل زمان ومكان يتجلى الكثير من المعالم البارزة على طريق العودة إلى أرض الشام ، لإقامة حكم الله :

أولا : أن بلاد الشام هى الأرض المقدسة ، وقد كتبها الله للمسلمين المؤمنين الموحدين ، وبهذا يقول الإمام القرطبى : ﴿ التى كتب الله لكم ﴾ أى فرض دخولها عليكم ووعدكم دخولها وسكناها لكم[1] .

ثانيا : لا يجوز للكفر أن يكون له ولاية على بيت المقدس .

ثالثا : أن الأمة المسلمة هى أمة مجاهدة ، ويجب أن تكون كذلك إلى ما شاء الله .

رابعا : أن النصر بيد الله ، وما على المؤمنين إلا أن يأخذوا بالأسباب ، ليتحقق نصر الله - عز وجل - ومنها : الإيمان بالله ، والتوكل عليه ، وطاعته فيما أمر ونهى .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ، جـ ٦ ، ص ١٢٥ .

خامسا : ضرورة الحث على الجهاد فى سبيل الله لاستخلاص الأرض المقدسة من الأيدى الكافرة التى اغتصبتها .

سادسا : أن الجيل المؤهل لاسترجاع الأرض المقدسة هو الجيل المسلم المجاهد فى سبيل الله[1] .

سابعا : ضرورة تميز الصف المسلم المجاهد الذى يعد نفسه لاستعادة الأرض المقدسة عن الصف غير المسلم .

ثامنا : أن الجيل الجبان الذى يقول اليوم بأنه لا طاقة له بقتال إسرائيل وأمريكا وروسيا ، لأنها تملك أسلحة نووية وقوة مادية ضخمة ، هو صورة مكرورة للجيل الجبان الذى عوقب بالتيه أربعين عاما[2] .

والأمة الآن معاقبة بالتيه ، فهى حائرة لا تدرى ماذا تفعل ، فكلما حاول الناصحون أن يعرفوها الطريق الصحيح لاسترجاع الأرض المقدسة المغتصبة ، صمَّت آذانها ، ووصفت الناصحين بالرجعية والتطرف ، ولذلك كان لابد وأن يجرى عليها عقاب الله ، وتعمل فيها سنة ربانية ، ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾[*] . سيهلك الجيل الجبان ، ويأتى الجيل المسلم المجاهد الذى سيكون على يديه استعادة الأرض التى بارك الله فيها للعالمين .

* * *

- **جيل مسلم مجاهد يحرر بيت المقدس :**
- **الجيل المسلم يقوده يوشع بن نون :**

لله فى حياة الأمم سنن ، تتحقق بتحقق أسبابها ، من هذه السنن ما يتضح من قول الله تعالى : ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ .

---

(١) ويصدق هذا حديث رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون ، حتى يختبىء اليهودى وراء الحجر والشجر ، فيقول الحجر أو الشجر ، يا مسلم ! يا عبد الله ! هذا يهودى خلفى ، فتعال فاقتله إلا الغرقد ، فإنه من شجر اليهود » صحيح الجامع الصغير ، حديث رقم ٣٠٧٨/٧٣٠٤ ؛ رواه مسلم .

(٢) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٣٦ – ٤١ .

(*) محمد : ٣٨ .

يقول الإمام القرطبى وابن كثير : (وإن تتولوا عن طاعة الله واتباع شرعه ﴿ يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ أى ولكن يكونوا سامعين مطيعين لله وأوامره)[1] .

فحينما تولى قوم موسى ، ورفضوا مجاهدة القوم الذين اغتصبوا بيت المقدس ، كتب عليهم التيه والضياع ، حتى قضى الجيل الجبان ، وجاء الله سبحانه وتعالى بجيل آخر مسلم مجاهد ، قاده (يوشع بن نون) لتحرير بيت المقدس .

وهنا تتحقق سنة ربانية أخرى : ﴿ وَعَدَ اللهُ الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ، لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فى الأرض ، كما اسْتَخْلَفَ الذين مِنْ قبلهم ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لهم دينهم الذى ارْتَضَى لهم ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ، يَعْبُدُونَنِى لا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئاً ﴾[2] .

يروى الله سبحانه وتعالى أخبار التمكين للجيل المسلم فى بيت المقدس : ﴿ وإذ قلنا : ادخلوا هذه القرية[3] ، فكلوا منها حيث شئتم رغدا ، وادخلوا الباب سجدا ، وقولوا : حطة ، نغفر لك خطاياكم ، وسنزيد المحسنين ﴾ .

يقول المفسرون : (إن يوشع بن نون قد افتتح بيت المقدس يوم الجمعة ، فهموا بافتتاحها ودنت الشمس للغروب ، فخشى إن دخلت ليلة السبت أن يسبتوا ، فنادى الشمس : إنى مأمور وإنك مأمورة ، فوقفت حتى افتتحها)[4] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ، جـ ١٦ ، ص ٢٥٧ - ٢٥٨ . تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ١٨٢ .

(٢) النور : ٥٥ . تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٣٠٠ - ٣٠٢ .

(٣) يقول القرطبى : (قيل ، إنَّها بيت المقدس وقيل : إنها أريحا من بيت المقدس ، وقيل : الشام ، وقيل : الرملة والأردن وفلسطين وتدمر) ، الجامع لأحكام القرآن ، جـ ١ ، ص ٤٠٩ ؛ (والصحيح : أ بيت المقدس) ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٩٨ .

(٤) تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٩٨ ، جـ ٢ ، ص ٣٩ - ٤١ . وفى الحديث الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ ، قال : « غزا نبى من الأنبياء » الحديث أخرجه مسلم وفيه قال : « فغزا فأدنى للقرية (لفظ البخارى : فدنا من القرية) حين صلاة العصر أو قريبا من ذلك ، فقال للشمس : أنت مأمورة وأنا مأمور ، اللهم احبسها على شيئا ، فحبست عليه حتى فتح الله عليه » ؛ انظر : الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٦ ، ص ١٣٠ - ١٣١ .

ولكن هذا الجيل المجاهد كان يضم بعض ضعاف النفوس ، الذين لم يستسلموا تماما لله رب العالمين يتضح ذلك من موقفهم فى مسألتين حيال أمر الله لهم :

المسألة الأولى :

لقد أمرهم الله عز وجل أن يدخلوا بيت المقدس (سجدا) أى شكرا لله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر ، ورد بلادهم عليهم ، وإنقاذهم من التيه والضلال[١] . وأن يقولوا : (حطة)[٢] أى احطط عنا خطايانا ولكنهم خالفوا أمر الله الحكيم ، فلم يخضعوا لله تعالى عند الفتح بالفعل والقول ، ولم يعترفوا بذنوبهم ، ويستغفروا منها ، ولم يشكروا الخالق العظيم على النعمة التى أنعم عليهم بها ، وهى الفتح ، ولم ينادوا إلى فعل ما يحبه الله عز وجل ، رغم أن الله سبحانه وتعالى قد وعدهم ﴿ وسنزيد المحسنين ﴾ .

﴿ فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم ، فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون ﴾[٣] .

أى أنهم لم يستجيبوا لأمر الله ، ويستسلموا له بالكلية ، ومن ملامح هذا التمرد على أوامر الله ، قولهم : (حبة فى شعرة) بدلا من (حطة)[٤] .

ولذلك نزل بهم عقاب الله عز وجل ، الذى يتمثل فيما أصابهم من الأوجاع والأسقام[٥] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٩٨ .

(٢) (قيل لبنى إسرائيل : ادخلوا البا سجدا وقولوا حطة . فدخلوا يزحفون على أستاههم فبدلوا وقالوا : حبة فى شعرة) رواه البخارى والنسائى .

(٣) البقرة : ٥٨ - ٥٩ .

(٤) يقول الإمام الحافظ أبو عبد الله القرطبى : (فبدل الذين ظلموا قولا) الذين ، فى موضع رفع ، أى فبدل الظالمون منهم قولا غير الذى قيل لهم : (قولوا : حطة) فقالوا : حنطة ، على ما تقدم ، فزادوا حرفا فى الكلام فلقوا من البلاء ما لقوا ، تعريفا أن الزيادة فى الدين والابتداع فى الشريعة عظيمة الخطر ، شديدة الضرر ، هذا فى تغيير كلمة هى عبارة عن التوبة أوجبت كل ذلك العذاب ، فما ظنك بتغيير ما هو من صفات المعبود . هذا والقول أنقص من العمل ، فكيف بالتبديل والتغيير فى الفعل) . الجامع لأحكام القرآن ، جـ ١ ، ص ٤١٥ .

(٥) يقول رسول الله ﷺ : « الطاعون رجز عذاب ، عُذِّب من كان قبلكم » رواه النسائى ، وفى =

الدروس المستفادة :

أولا : لله فى حياة الأمم والشعوب سنن لا تتغير ولا تتبدل ، ومنها : أن نكول الناس عن الاستسلام لأوامر الله سبحانه وتعالى يؤدى إلى استبدالهم بأقوام آخرين يطيقون الاستسلام لأوامر الله عز وجل ، ومنها : أن الله سبحانه وتعالى قد وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، والذين يفردون الله سبحانه وتعالى بالعبادة ، ولا يشركون به أحدا فى عبادته بالتمكين والاستخلاف فى الأرض ، ونشر ظلال الأمن والطمأنينة عليهم .

ثانيا : أن الجهاد ، هو المحك الحقيقى ، الذى يتميز من خلاله الخبيث من الطيب ، داخل الصف المسلم .

ثالثا : ليس بالضرورة أن يكون الصف المسلم على درجة واحدة من الاستسلام لله عز وجل ، حتى يتحقق نصر الله عز وجل ، وإنَّما قد يضم الصف من ظلم نفسه ، بعدم الطاعة لله ، بشرط أن يكونوا قلة .

رابعا : أنّ من سنن الله الثابتة فى حياة بنى آدم إصابتهم بالأوجاع والأسقام حينما يخالفون أوامر الله سبحانه وتعالى : ﴿ فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون ﴾ .

خامسا : أن الذنوب والمعاصى تعزل العبد عن رحمة الله عز وجل ، وتحرمه من نصرته : ﴿ وقولوا : حطة ، نغفر لكم خطاياكم ، وسنزيد المحسنين ﴾ .

سادسا : أهمية الأرض المقدسة عند الله عز وجل .

سابعا : أن الكون كله خلق منقاد طائع لله عز وجل ، فها هو نبى

= رواية : « إذا سمعتم الطاعون بأرض فلا تدخلوها » . رواه البخارى ومسلم ، وفى حديث آخر : « إن هذا الوجع والسقم رجز عذب به بعض الأمم قبلكم » أصل الحديث مخرج فى الصحيحين . (تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٠٠) .

بنى إسرائيل المسلم ينادى الشمس : (إنِّى مأمور وإنَّك مأمورة فوقفت حتى افتتحها) .

ثامنا : أن المجاهدين المسلمين وهم قلة ، يجب أن لا يأسوا على قومهم الذين خالفوا أمر الله ورسوله ، ونكلوا عن طاعتهما فيما أمرهم به من الجهاد فضعفت أنفسهم عن مصارعة الأعداء ومجالدتهم ومقاتلتهم ومقابلتهم ، مع أن الله قد وعد المسلمين المجاهدين بالنصر والظفر على أعدائهم .

تاسعا : أن الذين يسطون على الأرض المباركة « قوم جبارون » ، وبالتالى فإن الجيل المؤهل للجهاد فى سبيل الله ، وتطهير الأرض المباركة من تسلط أمثال هؤلاء القوم، هم الذين تحرروا من حب الدنيا، ويعيشون على الأرض وهم يرنون بأبصارهم إلى جنة عرضها السموات والأرض .

الدليل : ما رواه رسول الله ﷺ عن الفئة التى قاتلت مع (يوشع ابن نون) عليه السلام ، لقد استبعد منها من ملك امرأة ولم يبنى بها ، ومن بنى بيتا ولم يرفع سقفه ، ومن اشترى غنما وينتظر أولادها ، أى أنه استبعد كل من انشغل بأمر من أمور الدنيا :

« غزا نبى من الأنبياء ، فقال لقومه : لا يتبعنى منكم رجل ملك بضع امرأة ، وهو يريد أن يبنى بها ولم يبن بها ، ولا أحد بنى بيوتا ولم يرفع سقوفها ، ولا أحد اشترى غنما أو خلفات وهو ينتظر أولادها ، فغزا ، فدنا من القرية صلاة العصر ، أو قريبا من ذلك ، فقال للشمس : إنَّك مأمورة وأنا مأمور ، اللهم احبسها علينا ، فحبست حتى فتح الله عليه »[1] .

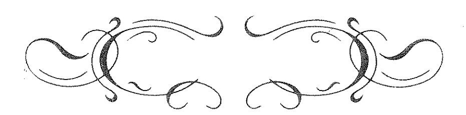
المسألة الثانية : أخذهم الغلول :

يروى الإمام الحافظ ابن كثير : (أنه لما فتح « يوشع بن نون » بيت المقدس ، وجد فيها من الأموال ما لم يُرَ مِثْلُهُ قط ، فقربوه إلى النار فلم تأته ، فقال فيكم الغلول ، فدعا رؤوس الأسباط ، وهم اثنا عشر رجلا ، فبايعهم والتصقت

---

(١) جزء من حديث روى عن رسول الله ﷺ : انظر : ١٩٧٢/٤٠٢٩ صحيح الجامع الصغير ، حرف الغين ، رواه البخارى ومسلم وأحمد فى مسنده .

يد رجل منهم بيده ، فقال : الغلول عندك ، فأخرجه . فأخرج رأس بقرة من ذهب ، لها عينان من ياقوت ، وأسنان من لؤلؤ ، فوضعه مع القربان ، فأتت النار تأكله)[1] .



---

(١) وهذا السياق له شاهد فى الصحيح ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٤٠ ، الجامع لأحكام القرآن جـ ٦ ص ١٣٠ - ١٣١ ، انظر : حديث رقم ١٩٧٢/٤٢٠٩ صحيح الجامع الصغير .

الدروس المستفادة :

أن الصف المسلم الذى قدر له أن يحرر بيت المقدس ، ضم أفرادا طغى عليهم حب الدنيا حتى ارتكبوا المعصية ؛ والمعصية التى ارتكبوها ، حالت بينهم وبين قبول الله لأعمالهم .

وفى هذا بيان أيضا ، لأهمية أن يكون الجيل الذى سيأخذ على عاتقه تحرير الأرض المباركة نظيف اليد ، لا تمتد يده إلى شرق أو إلى غرب ، أو إلى المال الحرام ، طاهر القلب ، قد خرج من حظ نفسه .

* * *

- زاوية انحراف أهالى بيت المقدس تتسع تدريجيا :

- جالوت وجنوده يغتصبون بيت المقدس :

لله فى حياة الأمم والشعوب سنن ، تتحقق بتحقق أسبابها ، ومن هذه السنن ما يبينه قوله تعالى : ﴿ وكذلك نُوَلِّى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون ﴾[1] .

يقول الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى[2] فى تفسير هذه الآية الكريمة : (جعل بعض الظالمين أولياء بعض ، ثم يتبرأ بعضهم من بعض غدا) . ومعنى : ﴿ نولى ﴾ على هذا ، نجعل وليا . قال ابن زيد : نسلط بعض الظلمة على بعض فيُهْلِكُهُ وَيُذِلُّهُ . وهذا تهديد للظالم ، إن لم يمتنع عن ظلمه سلط الله عليه ظالما آخر . ويدخل فى الآية جميع من يظلم (نفسه) ، أو يظلم (الرعية ، أو التاجر يظلم الناس فى تجارته ، أو السارق وغيرهم . وقال فضيل ابن عياض : (إذا رأيت ظالما ينتقم من ظالم فقف ، وانظر فيه متعجبا) . وقال

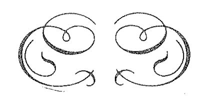
---

(١) الأنعام : ١٢٩ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٧ ، ص ٨٥ .

ابن عباس : (إذا رضى الله عن قوم ولى أمرهم خيارهم ، وإذا سخط الله على قوم ولى أمرهم شرارهم) . وفى الخبر عن النبى ﷺ : « من أعان ظالما سلط عليه » . يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾[1] .

هذه السنة الربانية نلمحها ، حينما زادت زاوية انحراف سكان بيت المقدس عن دين الله وهو الإسلام ، فسلط الله عليها عدوا ظالما طاغيا ، هو جالوت وجنوده ، فأخرجوهم من ديارهم[2] ، وكان ذلك فى فترة لاحقة لعهد موسى عليه السلام[3] .



---

(١) الشورى : ٣٠ ، الجامع لأحكام القرآن الكريم ، جـ ١٦ ، ص ٣٠ - ٣٢ .

(٢) وهذا شبيه الآن بموقف اليهود والمارون (الكتائب) والدروز والنصيريين الذين أخرجوا مسلمى الأرض المباركة من ديارهم ، وذبحوا الأطفال وقتلوا الرجال والنساء واعتدوا على أعراض الحرائر من النساء ، واغتصبوا أموالهم وثرواتهم ودورهم وأرضهم .

(٣) يؤكد ذلك قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى ، إذ قالوا لنبى لهم .. ﴾ سورة البقرة ، آية ٢٤٦ .

الجـــزء الثالـــث

عهد طالـــوت وداود وسليمان - عليهم السلام

- الله يقيض مسلمين مجاهدين لاسترجاع بيت المقدس وأرض الشام ، هؤلاء المسلمون هم طالوت وجنده ومنهم داود عليه السلام .

- دولة إسلامية عاصمتها بيت المقدس .

يعتبر عهد داود وسليمان - عليهما السلام - العصر الذهبى لبيت المقدس ، فقد قامت على أرضه دولة إسلامية ، مكن الله لها تمكينا لم يتكرر فى حياة البشرية إلا على عهد محمد - ﷺ - وصحبه - رضوان الله عليهم -.

هذه الدولة الإسلامية قد قامت على أكتاف المسلمين المجاهدين من بنى إسرائيل[1] ، ولهذه الدولة وقيامها على أرض الإسراء والمعراج قصة بدايتها : قام بأدوارها طالوت وداود - عليهما السلام - فى مواجهة جالوت وجنوده ، فما هى هذه القصة ؟

يقول الله عز وجل : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : ﴿ ألم تر ، إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى : إذ قالوا لنبى لهم : ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله . قال : هل عسيتم إن كتب عليكم القتال أَلَّا تُقَاتِلُوا . قالوا : وما لنا أَلَّا نُقَاتِلَ

---

(١) ليس هناك أية علاقة بين إسرائيل الحالية ، وإسرائيل (يعقوب) نبى الله المسلم ، وأبنائه من المسلمين ، وكون أن هنالك من يتسمى بأسماء الصالحين ، من المجرمين ، فلا يعنى لك أن نبرأ من الأسماء الصالحة وأصحابها من الصالحين ، على العكس ، فنحن أولى بنبى الله إسرائيل (يعقوب) النبى المسلم من غيره من الناس الكفار ، ولو كانوا من صلبه ،

انظر : رسالتنا : أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، ذرية إبراهيم عليه السلام ، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ، المنصورة ؛ وطبعة دار طيبة بالرياض .

فى سبيل الله ، وقد أُخرِجْنَا من ديارنا وأبنائنا . فلما كُتِبَ عليهم القتالُ تولوا إلَّا قليلا منهم ، والله عليم بالظالمين . وقال لهم نبيهم : إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا . قالوا : أنى يكون له الملك علينا ؟ ونحن أحق بالملك منه ! ولم يؤت سعة من المال . قال : إن الله اصطفاه عليكم ، وزاده بسطة فى العلم والجسم ، والله يؤتى ملكه من يشاء ، والله واسع عليم . وقال لهم نبيهم : إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون ، تحمله الملائكة . إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين . فلما فصل طالوت بالجنود قال : إنَّ الله مبتليكم بِنَهَر ، فمن شَرِبَ مِنْه ، فليس منى ، وَمَنْ لَمْ يطعمه ، فإنَّه مِنِّى ، إلَّا مَنْ اغترف غرفة بيده ، فشربوا منه إلّا قليلا منهم ، فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه ، قالوا : لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده . قال الذين يظنون أنهَّم ملاقوا الله : كم مِنْ فِئَةٍ قليلة غلبت فِئَةً كثيرةً بإذن اللهِ ، واللهُ مع الصابرين . ولما برزوا لجالوت وجنوده ، قالوا : ربنا أفرغ علينا صبرا ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين . فهزموهم بإذن الله ، وقتل داوود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة ، وعلمه مما يشاء ، ولولا دفعُ اللهِ الناسَ بَعْضَهُمْ ببعض لفسدت الأرضُ ، ولكن الله ذو فضل على العالمين . تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ، وإنَّك لمن المرسلين ﴾[1] .

وجالوت كما قلنا جبار غلب على أرض بيت المقدس ، وأخرج أهلها وأبناءهم منها ، وذلك فى فترة لاحقة لتاريخ يوشع بن نون .

والسبب فى ذلك ، أن الجيل الذى سكن بيت المقدس ، وسكن الأرض المباركة بعد موسى – عليه السلام – انحرف عن الصراط السَّوِىِّ كما شاهدنا وَرَكَنَ إلى الدنيا ، واستمرأ حياة الترف والرذيلة . وكانت النتيجة أَنْ سلط اللهُ عليهم جبارا طاغية هو جالوت يخرجهم وأبناءَهُمْ مِنْ الأرض المقدسة . وهذا إمضاء لسنة ربانية : ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾[2] .

---

(١) البقرة : ٢٤٦ – ٢٥٢ .

(٢) سورة الأنفال : آية ٥٣ .

وندم القوم على تفريطهم فى مقدساتهم ، وعدم انضباط حياتهم مع أوامر ربهم وسنن أنبيائهم ، وطلبوا من نبى لهم أن يسأل الله سبحانه وتعالى أن يختار لهم ملكا يقودهم للقتال فى سبيل الله ، لتخليص الأرض المقدسة من أيدى الأعداء .

ونظرا لأن هذه الأجيال كانت تعتاد التمرد على أوامر الله ، فإن نبيهم قال لهم : ألا يُنتظر أن تنكلوا عن القتال إذا فرض عليكم ؟ فأنتم الآن فى سعة من الأمر ، أمّا إذا استجبتُ لكم ، فتقرر القتال عليكم ، فتلك إذن فريضة مكتوبة ، ولا سبيل بعدها إلى النكول عنها ..

وهنا ارتفعت درجة الحماسة والفورة ، وذكر الملأ أن هناك من الأسباب الحافزة للقتال فى سبيل الله ما يجعل القتال هو الأمر المتعين الذى لا تردد فيه ، وإن كان يَشُوبُه أمر الدنيا : ﴿ وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ﴾ .

والقارىء لأخبار هؤلاء القوم فى القرآن الكريم ، يجد أن الأمر كان واضحا فى حسهم مقررا فى نفوسهم .. إن أعداءهم هم أعداء لله ، ولدين الله ، وقد أخرجوهم من ديارهم ، وسبوا أبناءهم ، فقتالهم واجب ، والطريق الوحيد الذى أمامهم هو القتال ، ولا ضرورة إلى المراجعة فى هذه العزيمة أو الجدال .

ولكن هذه الحماسة الفائرة فى ساعة الرخاء لم تدم : ﴿ فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم ﴾[1] .

وقال لهم نبيهم : إن الله اختار لهم (طالوت ملكا) ، فكان الاعتراض ، أنهم أحق بالملك منه بالوراثة ، فلم يكن من نسل الملوك ، ولأنه لم يؤت سعة من المال تبرر التغاضى عن أحقية الوراثة ، وكل هذا غبش فى التصور .

فرد عليهم نبيهم ، إن الله قد اختاره ، وزاده بسطة فى العلم والجسم ، والله وحده صاحب التصرف ، فهو ملكه ، وهو يختار من عباده من يشاء ، ليس لفضله خازن ، وليس لعطائه حد ، وهو الذى يعلم الخير ، ويعلم كيف توضع

---

(١) فى ظلال القرآن ، جـ ١ ، ص ٢٦٦ – ٢٧١ ، وهو يعتمد على الجامع لأحكام القرآن ، جـ ١ ، ص ٢٤٣ – ٢٦١ ، تفسير الطبرى ، جـ ١ ، ص ٦٧ .

الأمور فى مواضعها وكان هذا الرد من النبى كافيا لأن يستجيب القوم ، ولكن طبيعة بنى إسرائيل لا تصلح لها هذه الحقائق العالية وحدها . وهم مقبلون على معركة ، ولا بد لهم من خارقة ظاهرة تهز قلوبهم ، وتردها إلى الثقة واليقين :

﴿ وقال لهم نبيهم : إنَّ آية ملكه أن يَأْتِيَكُمْ التابوتُ ، فيه سكينةٌ من ربكم ، وبقيةٌ مما ترك آلُ موسى وآلُ هارونَ تحمله الملائكةُ ، إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ .

وكان أعداؤهم الذين شردوهم من الأرض المقدسة ، التى غلبوا عليها ، على يد يوشع بن نون بعد فترة التيه ، ووفاة موسى – عليه السلام – قد سلبوا منهم مقدساتهم ممثلة فى التابوت الذى يحفظون فيه مخلفات أنبيائهم من آل موسى وآل هارون .

وتولى طالوت القيادة ، ثم أعد جيشه ممن لم يتولوا عن فريضة الجهاد ، ولم ينكصوا عن عهدهم مع نبيهم من أول الطريق .

﴿ فلما فصل طالوت بالجنود قال : إن الله مبتليكم بنَهَرٍ ، فَمَنْ شرب منه فليس منى ، وَمَنْ لَمْ يطعمه فإِنَّه مِنِّى إلاّ مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِه فشربوا مِنْهُ إلا قليلا منهم ﴾ .

هنا يتجلى لنا مصداق حكمة الله فى اصطفاء هذا الرجل ... إنَّه مُقْدِمٌ على معركة ، ومعه جيش مِنْ أمة مغلوبة ، عرفت الهزيمة والذل فى تاريخها مرة بعد مرة . وهو يواجه جيش أمة غالبة ، فلابد إذن مِنْ قوة كامنة فى ضمير الجيش تقف به أمام القوة الظاهرة الغالبة . هذه القوة الكامنة لا تكون إلا فى الإرادة ، الإرادة التى تضبط الشهوات والنزوات ، وتصمد للحرمان والمشاق ، وتستعلى على الضرورات والحاجات ، وتؤثر الطاعة وتحمل تكاليفها ، فتجتاز الابتلاء بعد الابتلاء .. فلابد للقائد المختار إذن أنْ يَبْلُوَ إرادةَ جَيْشِهِ ، وصموده وصبره : صموده أولا للرغبات والشهوات .. وصبره ثانيا على الحرمان والمتاعب .. واختار هذه التجربة ، وهم – كما تقول الروايات – عطاش ، ليعلم من يصبر معه ، ممن ينقلب على عقبيه ، ويؤثر العافية .. وصحت فراسته[1] : ﴿ فشربوا منه إلا قليلا منهم ﴾ .

(١) هذا الموضوع مأخوذ التفسير فيه عن « فى ظلال القرآن » كما قلنا ، لأن عرض سيد قطب رحمه الله .. يمكن أن يعين بلا شك فى تحقيق الهدف التربوى .

شربوا وارتووا ، فقد كان أباح لهم أن يغترف منهم مَنْ يريد غرفة بيده ، تبل الظمأ ولكنها لا تشى بالرغبة فى التخلف !! وانفصلوا عنه بمجرد استسلامهم ونكوصهم .. انفصلوا عنه لأنهم لا يصلحون للمهمة الملقاة على عاتقهم وعاتقه . وكان من الخير أن ينفصلوا عن الجيش الزاحف ، لأنهم بذرة ضعف وخذلان وهزيمة . والجيوش ليست بالعدد الضخم ، ولكن بالقلب الصامد ، والإرادة الجازمة والإيمان الثابت المستقيم على الطريق .

ودلت هذه التجربة على أن النية الكامنة وحدها لا تكفى ، ولابد من التجربة العملية ... ومواجهة واقع الطريق إلى المعركة قبل الدخول فيها . ودلت كذلك على صلب عود القائد المختار الذى لم يهزه تخلف الأكثرية مِنْ جنده عند التجربة الأولى ... بل مضى فى طريقه .

﴿ فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا : لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴾ ..

لقد صاروا قلة .. وهم يعلمون قوة عدوهم وكثرته .. بقيادة جالوت . إنهم مؤمنون مستسلمون لم ينكصوا عن عهدهم مع نبيهم . ولكنهم هنا أمام الواقع الذى يرونه بأعينهم فيحسون أنهم أضعف من مواجهته . إنها التجربة الحاسمة .. تجربة الاعتزاز بقوة أخرى أكبر من قوة الواقع المنظور .. وهذه لا يصمد لها إلا مَنْ اكتمل إيمانهم ، فاتصلت بالله قلوبهم ، وأصبحت لهم موازين جديدة يستمدون منها مِنْ واقع إيمانهم ، غير الموازين التى يستمدها الناسُ مِنْ واقع حالهم !!

وهنا برزت الفئة المؤمنة .. الفئة القليلة المختارة .. الفئة ذات الموازين الربانية : ﴿ قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن اللهِ ، واللهُ مع الصابرين ﴾ .

هكذا ... (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة).. بهذا التكثير .. فهذه هى القاعدة فى حس الذين يوقنون أنهم ملاقوا الله .

القاعدة : أن تكون الفئة المؤمنة قليلة لأنها هى التى ترتقى الدرج الشاق حتى تنتهى إلى مرتبة الاصطفاء والاختيار ، ولكنها تكون الغالبة لأنها تتصل

بمصدر القوى ، ولأنها تمثل القوة الغالبة .. قوة الله الغالب على أمره ، القاهر فوق عباده ، محطم الجبارين ، ومخزى الطاغين ، وقاهر المتكبرين .

وهم يكلون هذا النصر لله : ﴿ بإذن الله ﴾ ... ويعللونه بعلته الحقيقية : ﴿ واللهُ مع الصابرين ﴾ فيدلون بهذا كله على أنهم المختارون مِن الله لمعركة الحق الفاصلة بين الحق والباطل ...

وتمضى القصة ، فإذا الفئة القليلة ، الواثقة بلقاء الله ، التى تستمد صبرها كله من اليقين بهذا اللقاء ، وتستمد قوتها كلها مِنْ إذن الله ، وتستمد يقينها كله من الثقة فى الله ، وأنه مع الصابرين ... إذا هذه الفئة القليلة الواثقة الصابرة ، الثابتة ، التى لم تزلزلها كثرة العدو وقوته ، مع ضعفها وقلتها .. إذا هذه الفئة هى التى تقرر مصير المعركة ، بعد أن تجدد عهدها مع الله ، وتتجه بقلوبها إليه ، وتطلب النصر منه وحده ، وهى تواجه الهول الرعيب :

﴿ ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا : ربنا أفرغ علينا صبرا ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين . فهزموهم بإذن الله ، وقتل داود جالوت ، وآتاه الله الملكِ والحكمة ، وعلمه مما يشاء ﴾ ...

فقد وَضُحَ الموقف ... إيمانٌ تِجَاهَ كُفْر . وحق إزاء باطل ، ودعوة إلى الله لينصر أولياءه المؤمنين على أعدائه الكافرين ..

وكانت النتيجة هى التى ترقبوها واستيقنوها : ﴿ فهزموهم بإذن الله ﴾ .. ويؤكد النص القرآنى هذه الحقيقة : ﴿ بإذن الله ﴾ .. ليعلمها المؤمنون أو ليزدادوا بها علما . وليتضح التصور الكامل لحقيقة ما يجرى فى هذا الكون ، ولطبيعة القوة التى تجريه ... إن المؤمنين ستار القدرة ، يفعل الله بهم ما يريد ، وينفذ بهم ما يختار بإذنه .. ليس لهم من الأمر شىء ، ولا حول لهم ولا قوة ، ولكن الله يختارهم لتنفيذ مشيئته ، فيكون منهم ما يريده بإذنه ... وهى حقيقة خليقة بأن تملأ قلب المؤمن بالسلام والطمأنينة واليقين ... إنه عبد الله ... اختاره الله لدوره ... وهذه مِنَّةٌ من الله وفضل ، وهو يؤدى هذا الدور المختار ويحقق قدر الله النافذ . ثم يكرمه الله – بعد كرامة الاختيار – بفضل الثواب ... ولولا فضل الله ما فعل ، ولولا فضل الله ما أثيب ... ثم إنَّه مستيقن من نبل الغاية وطهارة

القصد ونظافة الطريق ... فليس له فى شىء من هذا كله أرب ذاتى ، إنما هو منفذ لمشيئة الله الخيرة ، قائم بما يريد . استحق هذا كله بالنية الطيبة ، والعزم على الطاعة ، والتوجه إلى الله فى خلوص .

ويبرز السياق القرآنى دور داود : ﴿ وقتل داود جالوت ﴾ :

وداود كان فتى صغيرا من بنى إسرائيل ، وجالوت كان قائدا قويا ، وقائدا مخوفا .. ولكن شاء الله أن يرى القوم وقتذاك أن الأمور لا تجرى بظواهرها ، إنما تجرى بحقائقها . وحقائقها يعلمها هو . ومقاديرها فى يده وحده ، فليس عليهم إلا أن ينهضوا هم بواجبهم ، ويفوا لله بعهدهم ، ثم يكون ما يريده الله ، بالشكل الذى يريده . وقد أراد أن يجعل مصرع هذا الجبار الغشوم على يد هذا الفتى الصغير ، ليرى الناس أن الجبابرة الذين يرهبونهم ضعاف ضعاف يغلبهم الفتية الصغار ، حين شاء الله أن يقتلهم ... وكانت هناك حكمة أخرى مغيبة يريدها الله ... **فلقد قدر أن يكون داود هو الذى يتسلم الملك بعد طالوت ، ويرثه ابنه سليمان** ، فيكون عهده هو العهد الذهبى لبنى إسرائيل فى تاريخهم الطويل ، جزاء انتفاضة العقيدة فى نفوسهم بعد الضلال والانتكاس والشرود : ﴿ وآتاه اللهُ المُلْكَ والحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ .

وكان داود - عليه السلام - ملكا نبيا ، وعلمه الله صناعة الدروع وعدة الحرب ، مما يفصله القرآن فى مواضعه ، فى سور أخرى ...

أما فى هذا الموضع فإن **السياق يتجه إلى هدف آخر من وراء القصة جميعا .. وحين ينتهى إلى هذه الخاتمة** .

ويعلن :

النصر الأخير للعقيدة الواثقة ، لا للقوة المادية ، وللإرادة المستعلية لا للكثرة العددية .. حينئذ يعلن عن الغاية العليا من اصطراع تلك القوى .. إنها ليست المغانم والأسلاب ، وليست الأمجاد والهالات ، إنما هو الصلاح فى الأرض ، وإنما هو التمكين للخير بالكفاح مع الشر :

﴿ ولولا دفعُ اللهِ الناسَ بَعْضَهُمْ ببعض لفسدت الأرضُ ، وَلَكِنَّ اللهَ ذو فضل على العالمين ﴾ .

الدروس المستفادة :

دروس نذكر أنفسنا بها أولا ، وإخواننا فى الأرض المحتلة فى أرض الشام ، وأفغانستان ، وفى كل شبر مغتصب من أرض الإسلام ، وخاصة إخواننا الذين يقعون تحت القهر الشيوعى للدولة الروسية الفاجرة ، وإخواننا فى جنوب أفريقية ، وفى أريتريا ، والصومال ، والحبشة ، وغيرها من أرض الإسلام .

* إنها تجربة فى حياة بنى إسرائيل (أى الذين كانوا جزءا من الأمة المسلمة فى يوم من الأيام) من بعد موسى بعدما ضاع ملكهم ، ونهبت مقدساتهم ، وذلوا لأعدائهم ، وذاقوا الويل بسبب انحرافهم عن هدى ربهم وتعاليم نبيهم ، ثم انتفضت نفوسهم انتفاضة جديدة ، واستيقظت فى قلوبهم العقيدة ، واشتاقوا للقتال فى سبيل الله ، فقالوا لنبى لهم : ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله ..

ومن خلال هذه التجربة تبرز جملة حقائق ، تحمل إيحاءات قوية للجماعة المسلمة فى كل جيل ، فضلا عمّا كانت تحمله للجماعة المسلمة فى ذلك الحين .

والعبرة الكلية التى تبرز من القصة كلها هى أن هذه الانتفاضة – انتفاضة العقيدة – على الرغم من كل ما اعتورها أمام التجربة الواقعة من نقص وضعف ، ومن تخلى القوم عنها فوجا بعد فوج فى مراحل الطريق – على الرغم من هذا كله ؛ فإن ثبات حفنة قليلة من المؤمنين عليها قد حقق لبنى إسرائيل نتائج ضخمة جدا .. فقد كان فيها النصر والعز والتمكين ، بعد الهزيمة المنكرة ، والمهانة الفاضحة ، والتشريد الطويل والذل تحت أقدام المتسلطين . ولقد جاءت لهم بملك داود ، ثم ملك سليمان – وهذه أعلى قمة وصلت إليها دولة بنى إسرائيل فى الأرض ، وهى عهدهم الذهبى الذى يتحدثون عنه ، والذى لم يبلغوه من قبل فى عهد النبوة الكبرى ... وكان هذا النصر كله ثمرة مباشرة لانتفاضة العقيدة من تحت الركام ، وثبات حفنة قليلة عليها أمام جحافل جالوت !

وفى خلال التجربة تبرز بضع عظات أخرى جزئية ، كلها ذات قيمة للجماعة المسلمة فى كل حين :

من ذلك .. أن الحماسة الجماعية قد تخدع القادة لو أخذوا بمظهرها ، فيجب أن يضعوها على محك التجربة ، قبل أن يخوضوا بها المعركة الحاسمة .. فقد تقدم الملأ من بنى إسرائيل – من ذوى الرأى والمكانة فيهم – إلى نبيهم فى ذلك الزمان ، يطلبون إليه أن يختار لهم ملكا يقودهم إلى المعركة مع أعداء دينهم ، الذين سلبوا ملكهم وأموالهم ، ومعها مخلفات أنبيائهم من آل موسى ، وآل هارون . فلما أراد نبيهم أن يستوثق من صحة عزيمتهم على القتال ، وقال لهم : ﴿ هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألَّا تقاتلوا ! ﴾ .. استنكروا عليه هذا القول ، وارتفعت حماستهم إلى الذروة وهم يقولون له : ﴿ وما لنا ألَّا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ؟ ﴾ ... ولكن هذه الحماسة البالغة ما لبثت أن انطفأت شعلتها ، وتهاوت على مراحل الطريق كما تذكر القصة ، وكما يقول السياق بالإجمال : ﴿ فلما كتب عليهم القتال تولوا إلاَّ قليلا منهم ﴾ .. ومع أن لبنى إسرائيل طابعا خاصا فى النكول عن العهد ، والنكوص عن الوعد ، والتفرق فى منتصف الطريق ، إلاّ أن هذه الظاهرة هى ظاهرة بشرية على كل حال ، فى الجماعات التى لم تبلغ تربيتها الإيمانية مبلغا عاليا من التدريب ... وهى خليقة بأن تصادف قيادة الجماعة المسلمة فى أى جيل ... فيحسن الانتفاع فيها بتجربة بنى إسرائيل .

ومن ذلك أن اختيار الحماسة الظاهرة والاندفاع الفائر فى نفوس الجماعات ينبغى ألا يقف عند الابتلاء الأول ... فإن كثرة بنى إسرائيل هؤلاء قد تولوا بمجرد أن كتب عليهم القتال استجابة لطلبهم ، ولم تبق إلا قلة مستمسكة بعهدها مع نبيها . وهم الجنود الذين خرجوا مع طالوت بعد الحجاج والجدال حول جدارته بالملك والقيادة ووقوع علامة الله باختياره لهم ، ورجعة تابوتهم وفيه مخلفات أنبيائهم تحمله الملائكة ...! ومع هذا فقد سقطت كثرة هؤلاء الجنود فى المرحلة الأولى . وضعفوا أمام الامتحان الأول الذى أقامه لهم قائدهم : ﴿ فلما فصل طالوت بالجنود قال : إن الله مبتليكم بِنَهَرٍ ، فَمَنْ شَرِبَ منه فليس منى ، وَمَنْ لم يطعمه فإنه منى – إلاَّ مَنْ اغترف غرفة بيده – فشربوا منه إلاّ قليلا منهم ﴾ ... وهذا القليل لم يثبت كذلك إلى النهاية . فأمام الهول الحى ، أمام كثرة الأعداء وقوتهم ، تهاوت العزائم ، وزُلْزِلَتْ القُلُوبُ : ﴿ فلما جاوزه هو والذين

آمنوا معه قالوا : لا طاقة لنا اليوم بِجَالُوتَ وجنوده ﴾ .. وأمام هذا التخاذل ثبتت الفئة القليلة المختارة التى اعتصمت بالله ووثقت وقالت : ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قليلة غلبت فِئَةً كثيرةً بإذن اللهِ واللهُ مع الصّابرين ﴾ ... وهذه هى التى رجحت الكفة ، وتلقت النصر ، واستحقت العز والتمكين .

وفى ثنايا هذه التجربة تكمن عبرة القيادة الصالحة الحازمة المؤمنة ... وكلها واضحة فى قيادة طالوت . برز منها : خبرته بالنفوس ، وعدم اغتراره بالحماسة الظاهرة ، وعدم اكتفائه بالتجربة الأولى ، ومحاولته اختبار الطاعة والعزيمة فى نفوس جنوده قبل المعركة ، وفصله للذين ضعفوا وتركهم وراءه .. ثم – وهذا هو الأهم – عدم تخاذله وقد تضاءل جنوده تجربة بعد تجربة ، ولم يثبت معه فى النهاية إلا تلك الفئة المختارة . فخاض بها المعركة ثقة منه بقوة الإيمان الخالص ووعد الله الصادق للمؤمنين .

والعبرة الأخيرة التى تكمن فى مصير المعركة .. أن القلب الذى يتصل بالله تتغير موازينه وتصوراته ، لأنه يرى الواقع الصغير المحدود ، بعين تمتد وراءه إلى الواقع الكبير الممتد الواصل ، وإلى أصل الأمور كلها وراء الواقع الصغير المحدود ، فهذه الفئة المؤمنة الصغيرة ، التى ثبتت وخاضت المعركة وتلقت النصر ، كانت ترى من قلتها وكثرة عدوها ما يراه الآخرون الذين قالوا : ﴿ لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴾ .. ولكنها لم تحكم حكمهم على الموقف . إنَّما حكمت حكما آخر ، فقالت : ﴿ كم من فِئَةٍ قليلة غلبت فِئَةً كثيرةً بإذن الله ، واللهُ مع الصابرين ﴾ .. ثم اتجهت إلَى ربها تدعوه : ﴿ ربنا أفرغ علينا صبرا ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ .. وهى تحس أن ميزان القوة ليس فى أيدى الكافرين ، إنَّما هو فى يد الله وحده . فطلبت منه النصر ، ونالته من اليد التى تملكه وتعطيه .. وهكذا تتغير التصورات والموازين للأمور عند الاتصال بالله حقا ، وعندما يتحقق فى القلب الإيمان الصحيح . وهكذا يثبت أن التعامل مع وعد الله الواقع الظاهر للقلوب أصدق من التعامل مع الواقع الصغير الظاهر للعيون[١] ! .

---

(١) فى ظلال القرآن ، جـ ١ ، ص ٢٦٢ – ٢٦٣ .

★ إن الذى يتقدم لقيادة الجماعة المسلمة ، أو الصف المسلم لابد أن يتصف بالصفات التى بينها الله سبحانه وتعالى .

فالله سبحانه وتعالى قد اختار (طالوت) واختيار الله حجة قاطعة ، ومع ذلك فقد بين الله سبحانه وتعالى السبب الذى مِنْ أجله اصطفى (طالوت) – والله لَا يُسْأَلُ عما يفعل وهم يُسْأَلُون – وهو بسطته فى العلم الذى هو ملاك الإنسان ، والجسم الذى هو معينه فى الحرب ، وعدته عند اللقاء ، فتضمنت بيان صفة الإمام وأحوال الإمامة : (وأنها مستحقة بالعلم والدين والقوة لا بالنسب ، فلا حظ للنسب فيها مع العلم وفضائل النفس وأنها متقدمة عليه ، لأن الله تعالى أخبر أنه اختاره عليهم لعلمه وقوته ، وإن كانوا أشرف منه نسبا)[1] .

★ ﴿ كم مِنْ فِئَةٍ قليلة غلبت فِئَةً كثيرة ﴾ .. فيها كما يقول الإمام أبو عبد الله القرطبى (تحريض على القتال ، واستشعار للصبر ، واقتداء بمن صدق ربه . قلت : هكذا يجب علينا أن نفعل ، لكن الأعمال القبيحة والنيات الفاسدة منعت من ذلك حتى ينكسر العدد الكثير منا قدام اليسير – كما شاهدنا – غير مرة ، وذلك بما كسبت أيدينا) . وفى البخارى : وقال أبو الدرداء : إنَّما تقاتلون بأعمالكم . وفيه مسند إلى النبى ﷺ ، قال : « هل ترزقون وتنصرون إلاّ بضعفائكم ؟ » .. فالأعمال فاسدة ، والضعفاء مهملون ، والصبر قليل ، والاعتماد ضعيف ، والتقوى زائلة !! قال الله تعالى : ﴿ اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله ﴾ .. وقال : ﴿ وعلى الله فتوكلوا ﴾ .. وقال : ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ .. وقال : ﴿ ولينصرن الله من يَنْصُرُه ﴾ .. وقال : ﴿ إذا لقيتم فِئَةً فَاثْبُتُوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تُفْلِحُون ﴾ ... فهذه هى أسباب النصر وشروطه ، وهى معدومة عندنا ، غير موجودة فينا ، فإنا لله وإنا إليه راجعون على ما أصابنا وحل بنا . بل لم يبق من الإسلام إلا ذكره ، ولا من الدين إلا رسمه ، لظهور الفساد ولكثرة الطغيان وقلة الرشاد ، حتى استولى العدو شرقا وغربا ، برا وبحرا ، وعمت الفتن ، وعظمت المحن ، ولا عاصم إلا من رحم[2] .

* * *

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ، جـ ١ ، ص ٢٤٦ . (٢) الجامع لأحكام القرآن ، جـ ١ ، ص ٢٥٥ .

داود النبى المسلـم (عليـه السـلام)
خليفة على أرض فلسطـين

لله سنن كونية ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ، ومنها : التمكين فى الأرض للمؤمنين الموحدين : ﴿ وَعَدَ اللهُ الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بعد خوفهم أَمْناً ، يعبدوننى لا يُشْرِكُونَ بى شيئا ﴾[1] ..

وتحقيقا لهذا الوعد الربانى ، مَكَّنَ اللهُ لداود – عليه السلام – فجعله خليفة على أرض يحكم فيها بشرع الله ، ﴿ وآتاه الله الملك والحكمة ، وعلمه مما يشاء ﴾ ، ﴿ ولولا دفعُ اللهِ الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾[2] .

فقامت على أرض الشام دولة إسلامية ، عاصمتها بيت المقدس ، على رأسها نبى الله المسلم داود – عليه السلام –: ﴿ يا داود إنَّا جعلناك خليفةً فى الأرض ﴾[3] .

وقد وردت أخبار هذا النبى الكريم فى القرآن الكريم[4] وأحاديث النبى محمد ﷺ ، وكلها تؤكد حقيقة هامة وهى كون (داود) – عليه السلام – نبيا

---

(١) النور : ٥٥ .

(٢) البقرة : ٢٥١ .

(٣) ص : ٢٦ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ٣٢ .

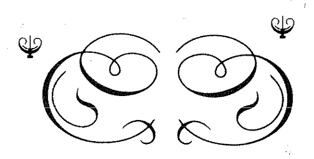
(٤) سبأ : ١٠ – ١١ ، الأنبياء : ٧٩ – ٨٠ ، ص : ١٧ – ٢٦ ، تفسير القرآن العظيم : جـ ٣ ، ص ٢٢٦ – ٢٢٧ ، المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٢٩ – ٣٢ ، البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ١٠ . تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ١٨٥ – ١٨٦ .

مسلما ، طائعا منقادا لله - عز وجل - بالكلية .. وكان من أثر ذلك أن الله - سبحانه وتعالى - قد سخر له الجبال والطير يسبحن الله لتسبيحه .

ولقد مكن الله سبحانه وتعالى لداود المجاهد فى الأرض ، ومن مظاهر هذا التمكين ، أن الله سبحانه وتعالى علمه صناعة الدروع من الحديد ، ليحصن المقاتلين من أعدائهم . ورغم أن داود عليه السلام كان خليفة ، وكان إماماً لأمته ، وقاضيا يفصل فى قضاياها ، فإن ذلك لم يمنعه أن يقتات من عمل يده ، ولم يعش عالة على أمته ، وقيام داود - عليه السلام - بواجبات الملك وما يقتضيه من أعمال ، لم يحل بينه وبين ساعات يمضيها متعبدا ساجدا لله عز وجل ، فهو الملجأ والملاذ ومنه يتلقى العون والتأييد .

ويوم يكون فى الأمة قواد يتأسون بهذا النبى - ﷺ - ونبينا محمد - ﷺ - حينذاك سوف يتنزل عليهم نصر الله - عز وجل .

وقد توفى داود - عليه السلام - وله من العمر مائة عام[1] ، فتولى الأمر على أرض الشام من بعده - بأمر الله عز وجل - ابنه سليمان عليه السلام .



(١) البداية والنهاية : جـ ٢ ، ص ١٦ ، انظر : اخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، ذرية إبراهيم عليه السلام ، تأليف د . جمال عبد الهادى ، ود . وفاء محمد رفعت ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، المنصورة .

سليمان – عليه السلام – النبى المسلم
ملك على أرض الشام وجزيرة العرب
بَيْتُ المقدس عاصمة للدولة الإسلامية

قيض الله – سبحانه وتعالى – للأرض المباركة بعد وفاة داود – عليه السلام – ابنا له نجيبا هو رسول الله سليمان – عليه السلام – الذى استخلفه الله – عز وجل – على دولة امتدت حدودها – على الأقل – لتشمل بلاد الشام كلها (سورية وفلسطين) وجزيرة العرب ، وكانت عاصمتها (بيت المقدس .

وقد مكن الله – سبحانه وتعالى – لسليمان – عليه السلام – على هذه الأرض المباركة ، ووهب له ملكا لا ينبغى لأحد من بعده ، والذى يعترف به سليمان – عليه السلام – والذى يعبر عنه قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وأوتينا من كل شىء ، إن هذا لهو الفضل المبين ﴾[1] .

فقد كان سليمان – عليه السلام – يعرف لغة الطير : ﴿ وَعُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ﴾[2] .. ولغة النمل (مع سماع أصواتها رغم خفوتها) ، ولغة الجن والإنس . وكان له جيش ينتظم فيه جنود من الجن والإنس : ﴿ وَحُشِرَ لسليمانَ جُنُودُهُ من الجن والإنس والطير فهم يوزعون ﴾[3] .. أى بلغة العصر كان سليمان يملك قواتٍ جوية (طيران) وقواتٍ بحرية : ﴿ شياطين كل غواص

---

(١) النمل : ١٦ .

(٢) النمل : ١٦ .

(٣) النمل : ١٧ .

وبناء ﴾ .. وقواتٍ أرضية (برية) ، تتميز عن جيوش العصر الحديث بضمها جنوداً من الجن ، يرون الناس والناس لا يرونهم .

كما مكن الله – سبحانه وتعالى – لسليمان – عليه السلام – بإمكانيات مادية وعلمية ، استخدمها فى إحضار عرش ملكة سبأ من جنوب الجزيرة العربية (دولة سبأ) إلى بيت المقدس فى غمضة عين (مع أنها مسافة كان يقطعها الناس فى شهرين ذهابا وإيابا) .

واستخدمها أيضا فى تمريد الصرح .

كما سخر الله – سبحانه وتعالى – له الرياح التى تجرى بأمره رخاء حيث أصاب .

وكان سليمان – عليه السلام – نبيا شاكرا ، لقد وظف كل هذا التمكين الربانى فى الدعوة إلى الإسلام .

وقد وردت الأخبار الصحيحة عن هذا النبى الكريم فى القرآن الكريم وحديث النبى محمد – ﷺ –[1] .

معالم بارزة ترسيها سيرة سليمان – عليه السلام – على الأرض المقدسة :

– أن سليمان – عليه السلام – نبى مسلم وإلى الإسلام كان يدعو .

– أن الدولة التى كان يحكمها سليمان – عليه السلام – وعاصمتها بيت المقدس ، كانت دولة إسلامية ، دينها الإسلام ، وبه تعمل ، وإليه تدعو الناس .

– أن الواجب الذى أنيط بسليمان – عليه السلام – الرسول المسلم تحقيقه على أرض الشام وعلى أرض الجزيرة العربية وغيرها – هو إقامة حكم الله عز وجل .

---

(١) انظر التفاصيل : أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، ذرية إبراهيم – عليه السلام –، سورة النمل : الآيات : ١٥ – ٤٤ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٣٥٨ – ٣٦٦ ؛ نفس المصدر ، جـ ٤ ، ص ٣٣ – ٣٩ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ٢٠ – ٢٦ .

وذلك يعنى أن واجب المسلمين الآن بالدرجة الأولى هو استعادة أرض الشام وغيرها من الأراضى الإسلامية المغتصبة ، لأنها ميراثها عن الأمة المسلمة ، لتقيم عليها نظام الإسلام وشرعه لا لإقامة دولة علمانية كما كان ينادى بعض أبناء فلسطين على منبر ما تسمى بالأمم المتحدة[1] .

– أن سليمان – عليه السلام – قام بتجديد وإكمال مسجد بيت المقدس (المسجد الأقصى) الذى أسسه آدم عليه السلام ، وقام بتجديده وعمل إضافات له أكثر من شخص منهم إبراهيم ويعقوب وداود – عليهم السلام –[2] .

أى أن سليمان – عليه السلام – لم يبن هيكلا كما زعمت يهود ، ولكنه بنى مسجدا يتعبد فيه المسلمون لله عز وجل . وهذا أيضا يدحض أيضا ادّعَاء النصارى أن المسجد الأقصى كان كنيسة قد أقامها الإمبراطور جستنيان تبجيلا

---

(١) ومن هنا يتضح لنا التشويه والتزييف الذى تعرض له تاريخ داود وسليمان – عليهما السلام – على أيدى اليهود ومن شايعهم من الصليبيين ومن أبناء العرب والمسلمين .. وأن هذا التشويه والتزييف المتعمد يهدف إلى تربية أجيال لا تعرف حقيقة تاريخها الإسلامى وحقيقة العلاقة التى تربطها بأمتها الإسلامية على امتداد الزمن ، وحقيقة المقدسات التى يجب أن تحرص عليها .

وقد نجحت الخطة أيما نجاح ، فقد نشأت أجيال تحمل أعلى الدرجات العلمية ، سلمت لليهود بأن لهم حق فى الأرض المقدسة (انظر : أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، ذرية إبراهيم عليه السلام) .

(٢) روى الإمام البخارى حديثا : « حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا عبد الواحد ، حدثنا الأعمش ، حدثنا إبراهيم التيمىّ عن أبيه قال : سمعت أبا ذر رضى الله عنه ، قال : قلت : يا رسول الله ، أى مسجد وضع فى الأرض أول ؟ قال : المسجد الحرام . قال ، قلت : ثم أى ؟ قال : المسجد الأقصى . قلت : كم كان بينهما ؟ قال : أربعون سنة . ثم أينما أدركتك الصلاة بعدُ فَصَلِّه ، فإنَّ الفضل فيه » .

وقد ورد فى شرح الحديث :

(أ) أن المسجد الحرام بمكة المكرمة كان أول بيت وضع لعبادة الله .

(ب) المسجد الأقصى يعنى مسجد بيت المقدس ، قيل الأقصى لبعد المسافة بينه وبين الكعبة .

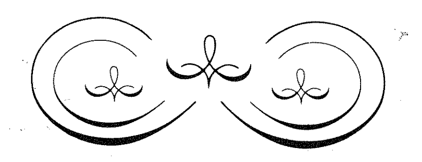
(ج) أن أول من أسس المسجد الأقصى هو آدم عليه السلام ، ليكون قبلة لبعض ذريته .

(د) أن ما قام به يعقوب ومن قبله إبراهيم – عليهما السلام – هو رفع القواعد لهذا المسجد .

(هـ) أن ما قام به داود – عليه السلام – هو تجديد لذلك ، وابتداء بناء فلم يكمل على يده حتى أكمله سليمان عليه السلام ، انظر : فتح البارى ، جـ ٦ ، ص ٤٠٧ – ٤١٠ ، الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٤ ، ص ١٣٦ – ١٣٧ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٣٨٣ .

للعذراء فى الأصل ، وحوَّلها العرب إلى مسجد بأمر الخليفة عمر بن الخطاب[1] رضى الله عنه .

وللمسجد الأقصى أهمية وفضيلة لكونه مسجد الأنبياء ، والدليل حديث الرسول محمد - ﷺ -: « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجد الرسول ﷺ ، ومسجد الأقصى »[2] .



---

(١) حضارة العرب ، تأليف جوستاف لوبون ، ص ١٦٢ .

(٢) رواه البخارى فى كتاب فضل الصلاة فى مسجد مكة والمدينة ؛ صحيح أبى عبد الله البخارى ، مكتبة ومطبعة المشهد الحسينى ، ج ٢ ، ص ٧٣ ؛ فتح البارى ، ج ٣ ، ص ٦٣ - ٦٨ ؛ الجامع لأحكام القرآن ، ج ١٠ ، ص ٢١١ .

الجـــزء الرابـــع

بـــلاد الشــــام

على عهد زكريا ويحيى وعيســـى - عليهم السلام

ظلت أرض الشام - بما فى ذلك بيت المقدس - فى الفترة الزمنية الممتدة من عهد سليمان - عليه السلام - إلى زمن بعثة عيسى - عليه السلام - ورفعه إلى السماء ، عامرة بسلالات من الأمة المسلمة من بنى إسرائيل التى حرص الشيطان على اجتيالها عن دينها .

ومن رحمة الله - عز وجل - أن جعل فى بنى إسرائيل[1] (النبى المسلم) ملوكا وأنبياء ورسلا مسلمين .

ومن هؤلاء زكريا ويحيى وعيسى - عليهم السلام - وأخبار هؤلاء الأنبياء - عليهم السلام - مبسوطة فى القرآن الكريم[2] وحديث الرسول محمد - ﷺ - والمصادر الإسلامية الأخرى[3] .

وتعرض لنا المصادر ، صورة لانحرافات بنى إسرائيل عن الإسلام ، وقد

---

(١) لا علاقة - كما قلنا - بين إسرائيل ، النبى المسلم - عليه السلام -، وإسرائيل الحالية ، فهو تشابه فى الأسماء فقط .

(٢) مريم : ١ - ١٥ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ١١٠ - ١١٤ ؛ آل عمران : ٣٧ - ٤١ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٣٦٠ - ٣٦٢ ؛ الأنعام : آية ٨٥ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ١٥٤ - ١٥٥ ؛ الأنبياء : ٨٨ - ٩٠ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ١١٠ ؛ مسند الإمام أحمد ابن حنبل ، صحيح أبى عبد الله البخارى .

(٣) تاريخ الرسل والملوك للإمام أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى (ت ٣١٠ هـ) ، البداية والنهاية ، للإمام الحافظ إسماعيل ابن كثير ؛ أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، ذرية إبراهيم عليه السلام .

اتسعت زاوية انفراجها ، فكانوا يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية ، وكانوا يسفكون دماء بعضهم البعض ، ويقتلون النبيين بغير الحق ، ولا يتناهون عن فعل المنكرات ومع ذلك فقد تغمدهم الله برحمته عسى أن يعودوا إلى ربهم وإسلامهم ، ومن هذه الرحمات بعثة عيسى[١] - عليه السلام - (منتصف القرن الأول الميلادى) فى بنى إسرائيل على أرض فلسطين ، حول المسجد الأقصى..

وكان بيْت المقدس وكذلك أرض الشام كلها قد وقعت فى قبضة الاحتلال الرومى منذ عام ٦٤ و٦٣ ق . م .

وهكذا نلاحظ أن أرض فلسطين ، لم تتعرض للغصب فى القرن الثالث عشر الهجرى فقط ، بل إنها وأرض سورية كانت مبتلاة بالغزو الأجنبى منذ زمن بعيد ، ولعل حدوث ذلك الغزو كان نتيجة لانحراف أهل تلك البلاد من المسلمين ، فكان لابد وأن تعمل فيهم سنة من سنن الله الكونية الثابتة : ﴿ وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله ، فحاسبناها حسابا شديدا ، وعذَّبْنَاها عذابا نكرا ، فذاقت وبال أمرها ، وكان عاقبة أمرها خُسْرًا ﴾[٢] ...

ولعله من باب تسليط الله الظالمين على الظالمين : ﴿ وكذلك نُوَلِّى بعضَ الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون ﴾[٣].

* * *

---

(١) آل عمران : ٣٣ - ٣٧ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٣٥٨ - ٣٥٩ ؛ آل عمران : ٤٤ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٣٦٣ ؛ آل عمران : ٤٥ - ٥١ ؛ مريم : ١٦ - ٣٧ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ١١٤ - ١٢١ ؛ المائدة : ١١٠ - ١١١ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ١١٥ ؛ آل عمران : ٤٨ - ٥٤ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٣٦٤ - ٣٦٥ ؛ الصف : ٦ - ٨ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ٣٥٩ ، ٣٦٠ ؛ الأعراف : ١٥٧ ؛ الصف : ١٤ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ٣٦٢ ؛ آل عمران : ٥٥ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٣٦٦ ، المائدة : ١١٢ - ١١٥ ؛ تفسير القرآن العظيم : جـ ٢ ، ص ١١٥ - ١١٦ ؛ البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ٥٦ وما بعدها .

(٢) الطلاق : ٨ - ٩ .

(٣) الأنعام : ١٢٩ .

بعثـــة

عيســـى عليــه الســـلام

على أرض الشـــام

ولد عيسى - عليه السلام - وبعث على الأرض التى بارك الله فيها للعالمين ، والتى إليها نجى الله جده إبراهيم عليه السلام ، والتى عليها درج إسحاق ويعقوب وداود وسليمان - عليهم السلام -.

وقد بعثه الله إلى قومه ، الذين كان الشيطان قد نجح فى اجتيالهم عن دينهم : ﴿ ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به ، أن اعبدوا الله ربى وربكم ﴾[1] .

وعيسى - عليه السلام - نبى مسلم ، وإلى الإسلام دعا : ﴿ فلمـا أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريون : نحن أنصار الله ، آمنا بالله ، واشهد بأنا مسلمون ﴾[2] .

وفى الحديث عن رسول الله محمد - ﷺ -: « أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم فى الدنيا والآخرة ، والأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ، ودينهم واحد »[3] .

وقد بعث عيسى - عليه السلام - على أرض الشام وكان الروم

---

(١) المائدة : ١١٧ .

(٢) آل عمران : ٥٢ .

(٣) أخرجه البخارى ومسلم .

(الأوربيون) قد اغتصبوها قبل بعثة محمد - ﷺ - بسبع وسبعين عاما وستمائة[١] .

لقد كانت الفرصة متاحة لأهل الشام بعد بعثة عيسى - عليه السلام - لكى يعودوا إلى الله - عز وجل -، ويعلنوا توبتهم وإنابتهم وإيمانهم برسول الله عيسى - عليه السلام - واستسلامهم الكامل لله رب العالمين .

ولكنهم أصروا على ذنوبهم ومعاصيهم ، وعلى موقفهم المعادى لأصحاب الرسالات ، متعاونين فى ذلك مع المغتصب الأجنبى ، ممثلا فى دولة الروم التى كانت تحتل الشام كلها بما فى ذلك بيت المقدس[٢] .

معالم بارزة ترسيها سيرة عيسى - عليه السلام - على أرض الشام فى ظل الاحتلال الأوربى (الرومى) :

إن المستعرض لأحوال المجتمع الشامى قبل بعثة عيسى - عليه السلام - يرى عجبا ، يرى ذرارى المسلمين الذين يزعمون أنهم ينتسبون إلى إبراهيم - عليه السلام - وقد كفروا بالله - عز وجل -، ومرقوا من دين الله ، وتركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتفشت فيهم الموبقات والكبائر من أكل للربا ، ومن شرب للخمر ، ومن انتهاك للأعراض ، وقتل للأنبياء والرسل ، والدعاة إلى دين الله عز وجل ، رغم تَعَهُّدهم بالنبوات على مدار تاريخهم ، رحمة من الله بهم .

ولذلك كان لابد - وهذا بإرادة الله - أن تجرى عليهم سنن الله سبحانه وتعالى ، ومنها تسليط الظالمين عليهم .

ويدخل فى هؤلاء الظالمين المغتصبون الآشوريون والكلدانيون والفرس

---

(١) انظر : أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، ذرية إبراهيم عليه السلام .

(٢) والمكر الذى مكره اليهود الذين لم يؤمنوا برسولهم عيسى - عليه السلام - مكر طويل عريض فقذفوه - عليه السلام - وأمه الطاهرة : أمه مع يوسف النجار خطيبها الذى لم يدخل بها كما تذكر الأناجيل ، وقد اتهموه بالكذب والشعوذة ، ووشو إلى الحاكم الرومى (بيلاطس) وادعوا أنه مهيج يدعو الجماهير للإنقضاض على الحكومة ، وأنه مشعوذ يفسد عقيدة الجماهير ، حتى سلم لهم (بيلاطس) بأن يتولوا عقابه بأيديهم ، لأنه لم يجرؤ - وهو وثنى - على احتمال تبعة هذا الإثم مع رجل لم يجد عليه ريبة . (تاريخ الرسل والملوك ، جـ ١ ، ص ٥٩٣) .

واليونان الذين اغتصبوا بلاد الشام على فترات طويلة من تاريخها[1] .

ولكن مع هذا الانحراف ، فإن رحمة الله قد تداركت سكان المجتمع الشامى ، فبعث الله – سبحانه وتعالى – فيهم عيسى – عليه السلام – يدعوهم إلى :

– إفراد الله وحده بالعبادة والكفر بالطاغوت .

– إخضاع الحياة لنظام الله وشرعه .

ولكن سكان المجتمع الشامى ، رفضوا التحرر ، من ربقة الطاغوت (ممثلا فى الحكام الروم وأنظمتهم وقوانينهم) وإفراد الله وحده بالعبادة .

أى أنهم استمرأوا العيش فى ظل الاحتلال الرومى ، الذى انتهك حرماتهم ، واستخدمهم فى تحقيق مآربه ورغباته ، ورفضوا دعوة نبيهم عيسى – عليه السلام –، بل إنهم شوهوا سمعته ، واتهموا أمه بيوسف النجار ، لا بل اتهموه نفسه بالكذب والشعوذة[2] .

فلا كرامة لنبى فى وطنه !!

ووفاءً للمغتصب ، وعداءً وحقدا على أحد أبناء أمتهم الذى ابتعثه الله ليحررهم من العبودية للعباد ، ويجعلهم عبيدا لله الواحد القهار ، تولى المنحرفون من بنى إسرائيل – عليه السلام – مهمة القضاء على صاحب الرسالة (ولكن الله نجاه) وأعوانه الذين أسلموا لله رب العالمين .

وبهذا العمل ، مهد أعداء الإسلام لاستمرار اغتصاب الروم لأرض الشام ،

---

(١) وهذا هو واقع المجتمع الشامى الآن ، الذى تلسط عليه أصحاب العقائد الفاسدة ، النصيريون والدروز والمارون (الكتائب) والقوميون والبعثيون وغيرهم .

وصدق رسول الله ﷺ : « إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم » .. ففساد أهل الشام علامة على فساد هذه الأمة كلها . وهذا هو واقع الأمة فعلا ، لقد تسلط عليها الأعداء وأعوانهم وعملاؤهم .

(٢) ما أشبه اليوم بالبارحة ، فأبناء الأرض المحتلة من الدروز والنصيرية والمارون (الكتائب) والقوميين والبعثيين ، يتآمرون مع المغتصب اليهودى للقضاء على كل صوت يدعو إلى تحرير الإنسان من استعباد الأجنبى الدخيل ، وتحرير الأرض التى بارك الله فيها للعالمين وإقامة حكم الله عليها .

أى أن أبناء الوطن هم الذين حملوا عن المغتصب الدخيل عبء القضاء على كل صوت يرتفع بتحرير الأرض التى بارك الله فيها للعالمين ، وإقامة حكم الله عليها .

وهذا هو الواقع الآن ، إن الكثيرين من أبناء الوطن العربى هم الذين مهدوا لاغتصاب اليهود لأرض فلسطين ، وهم الذين يحمون وجودهم ، وهم الذين يتولون القضاء على كل محاولة لإنهاء الهجمة اليهودية الشرسة على الأرض التى بارك الله فيها للعالمين ، وعلى الأرض الإسلامية .

ولقد كان الجزاء من جنس العمل ، لقد عاقب الله أهل الأرض المحتلة باستمرار تسلط الروم الظالمين عليهم لمدة خمسة قرون أخرى أو يزيد ، بعد محاولة قتل نبى الله عيسى – عليه السلام – واستئصال شأفة الإسلام .

وهنا نتساءل : إذا كان أهل الأرض المحتلة قد تواطأوا مع العدو المغتصب ، وعاونوه فى القضاء على المقاومة الإسلامية ، إذن مَنْ الذى حَرر هذه الأرض المباركة ؟ ومتى ؟ وكيف ؟

والإجابة نتلقاها فى الفصل القادم بإذن الله .

وكعادة بنى إسرائيل ، فقد حاولوا قتل رسولهم عيسى – عليه السلام – فرفعه الله إليه ، وانتقم الله منهم بأن سلط عليهم (تيتوس) بن الإمبراطور فسبسيان ملك رومية ، فغزا بيت المقدس بعد رفع عيسى – عليه السلام – بأربعين سنة . فقتل مَنْ فى بيت المقدس ، وسبى ذراريهم وأمر بالمدينة فنقضت أحجارها ، حتى لم يترك بها حجرا على حجر[1] .

وظلت أرض الشام بما فى ذلك بيت المقدس ، فى قبضة المحتل الأوروبى (الرومى) حتى قيض الله لها الأمة المسلمة بقيادة رسول الله محمد – ﷺ – وصحبه – رضوان الله عليهم –.

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ، جـ ١ ، ص ٥٨١ .

الفصــــل الثانــــى

الجـــزء الأول

أرض الشـــــام

بعد بعثة محمد - ﷺ -

وعلى عهد الخلفاء الراشدين - رضى الله عنهـم -

- الله ينتدب محمدا - ﷺ - وصحبه من المسلمين لاستنقاذ الأرض المباركة من أيدى الطغاة الأوروبيين (الروم) .

- صحابة رسول الله - ﷺ - يقيمون حكم الإسلام على أرض الشام .

ظلت بلاد الشام[1] فى قبضة الاحتلال الأوروبى (الرومى)[2] لمدة سبعة قرون ، منذ عام ٦٣ ق . م وحتى عام ١٣ هـ .

وفى عام ٦١٣ م بعث رسول الله محمد - ﷺ - وقبل الهجرة بسنوات أسرى به من مكة إلى مسجد الأقصى (بيت المقدس) ، ومنها عرج به إلى السماء[3] .

ولأهمية هذه الحادثة الضخمة سجلها الله سبحانه وتعالى فى القرآن

---

(١) روى معاذ بن جبل رضى الله عنه عن النبى - ﷺ - أنه قال : « يقول الله تعالى يا شام أنت صفوتى من بلادى ، وأنا سائق إليك صفوتى من عبادى » ، الجامع لأحكام القرآن ، جـ ١٠ ، ص ٢١٢ .

(٢) وتسميهم المصادر الأجنبية باسم البيزنطيين وتطلق عليهم المصادر العربية (الفرنجة) (البداية والنهاية ، جـ ١٢) .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ، جـ ١٠ ، ص ٢٠٤ - ٢١٢ .

الكريم : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، الذى باركنا حوله ، لنريه من آياتنا ، إنَّه هو السميع البصير ﴾[1] .

والمسجد الأقصى كما بين الإمام الحافظ إسماعيل بن كثير ، (هو بيت المقدس الذى بإيلياء ، معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل - عليه السلام -، ولهذا جمعوا له (لرسول الله محمد - ﷺ -) هناك كلهم فأمهم فى محلتهم ودارهم ، فدل على أنَّه هو الإمام الأعظم والرئيس المقدم - صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين -.

وقد ورد فى الأحاديث الصحيحة ما يؤكد « أنه - أى رسول الله محمد - ﷺ - اجتمع بالأنبياء فى السموات ثم نزل إلى بيت المقدس ثانيا وهم معه ، وصلى بهم فيه »[2] .

فهل هذا كان توجيها من الله عز وجل لمحمد - ﷺ - وأمته المسلمة أن أرض الشام مسئوليتكم ، وهى ميراثكم عن بنى إسرائيل !!.. وأنه لابد من تحمل مسئولية القيادة والسعى إلى تحريرها وبيت المقدس من أيدى الأوروبيين (الروم) الذين احتلوها منذ سبعة قرون ، وإقامة حكم الله عليها ؟؟

إن توجيهات رسول الله ﷺ ، وما وقع من أحداث بعد الإسراء والمعراج تؤكد هذا :

(أ) توجيهات رسول الله محمد - ﷺ - :

١ - « عليكم بالشام فإنَّها صفوة بلاد الله ، يسكنها خيرته من خلقه ، فمن أبى فليلحق بيمنه ، ولْيُسْقَ من غُدُرِه ، فإن الله تكفل لى بالشام وأهله »[3] .

٢ - « الشام أرض المحشر والمنشر »[4] .

---

(١) الإسراء : ١ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٢ وما بعدها .

(٢) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ١٦ ، ص ٢٢ ، ٢٣ .

(٣) حديث رقم ٣٩٤٨ ، صحيح الجامع الصغير وزيادته ، تأليف محمد ناصر الدين الألبانى ، المجلد الرابع ، المكتب الإسلامى ، ط ٣ ، ١٤٠٢ هـ ، ص ٤٨ ، رواه الطبرانى فى الكبير .

(٤) المصدر السابق ، حديث ٣٦٢٠ .

٣ – « عقر دار الإسلام بالشام »[١] .

٤ – « طوبى للشام لأن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليه »[٢] .

٥ – « صفوة الله من أرضه الشام ، وفيها صفوته من خلقه وعباده ، وليدخلن الجنة من أمتى ثلة لا حساب عليهم ولا عذاب »[٣] .

٦ – « يا معاذ ، إن الله عز وجل سيفتح عليكم الشام من بعدى ، من العريش إلى الفرات رجالهم ونساؤهم وإماؤهم مرابطون إلى يوم القيامة ، فمن اختار منكم ساحلا من سواحل الشام أو بيت المقدس فهو فى جهاد إلى يوم القيامة »[٤] .

أحداث بعد الإسراء برسول الله محمد – ﷺ – تقوى هذا الافتراض :

(ب) غزوة مؤتة[٥] :

ففى عام ثمان من الهجرة وجه رسول الله محمد – ﷺ – سرية زيد ابن حارثة فى نحو ثلاثة آلاف إلى أرض البلقاء من أطراف الشام .

ومضت السرية حتى نزلت معان من أرض الشام ، فبلغ الناس أن هرقل (قيصر الروم) قد نزل أرض مآب ، وانضم إليه خمسون ألف من العرب (لخم وجذام والقين وبهراء وبَلَى) .

فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين ينظرون فى أمرهم ، وقالوا :

---

(١) رواه أحمد فى مسنده والنسائى .

(٢) رواه ابن حبان فى صحيحه . وأحمد فى مسنده ، المصدر السابق ، حديث رقم ٣٨١٥ .

(٣) المصدر السابق ، حديث رقم ٣٦٥٩ .

(٤) رواه معاذ ، أخرجه القاضى مجير الدين الحنبلى المقدسى ، فى الأنس الجليل ، جـ ١ ، ص ٢٠٣ .

(٥) وهى التى يطلق عليها كتاب السير غزوة مؤتة : (السيرة النبوية للإمام أبى الفداء إسماعيل بن كثير (٧٠١ – ٧٧٤ هـ) جـ ٣ ، دار المعرفة ، بيروت ١٣٩٣ هـ ، ص ٤٥٥ ، ٤٥٨ – ٤٧٨ .

نكتب إلى رسول الله - ﷺ - نخبره بعدد عدونا ، فإما أن يمدنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى له . قال : فشجع الناس عبد الله بن رواحة ، وقال : يا قوم ، والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون ، الشهادة وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به فانطلقوا ، فإنّما هى إحدى الحسنيين[1] : إما ظهور وإما شهادة ..

وقتل قائد السرية (زيد بن حارثة) ، وقتل القائد الثانى (جعفر بن أبى طالب) وهو يقول :

يا حبَّذا الجنة واقترابها طيبة وباردٌ شرابُها
والرومْ رَوْمْ قد دنا عذابُها (كافرة بعيدة أنسابها)
علىّ إنْ لاقيتُهَا ضِرَابُها[2]

وقتل القائد الثالث عبد الله بن رواحة وهو يقول :

يا نفس إن لا تقتلى تموتى هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت إن تفعلى فعلهما هديت

ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد الذى دعا له رسول الله محمد - ﷺ - : « اللهم إنَّه سيف من سيوفك ، أنت تنصره »[3] .

وشاء الله سبحانه وتعالى أن يهزم جموع الروم والعرب الذين معهم ، ليُرسِى الله سبحانه وتعالى بهم معلما ضخما فى حياة الأمة المسلمة :

---

(١) أليست هى نفس كلمة المؤمنين المجاهدين على أبواب بيت المقدس ، التى سجلها الله وهم يواجهون طالوت ﴿ قال الذين يخافون الله : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين ﴾ وكأنما أراد صحابة رسول الله ﷺ أن يتركوا معلما بارزا للأمة المسلمة ، وهو أن الغلبة لأصحاب هذا الدين (الإسلام) . وليست العبرة بالعدد ولا بالقوة ولا بالكثرة ، إنما العدة (الإيمان) .

وما أحرى الذين يخافون وترتعد فرائصهم فرقا من إسرائيل أو من أمريكا وروسيا وغيرهم ، أن يتملوا ما جاء فى توجيهات صحابة رسول الله ﷺ ، ومواقفهم لكى يتخلوا عن خوفهم واعتمادهم على عدوهم ، ويعودوا إلى ربهم وإسلامهم وجهادهم لتحرير الأرض التى بارك الله فيها للعالمين .

(٢) السيرة النبوية ، ج ٣ ، ص ٤٦٢ .

(٣) السيرة النبوية ، ج ٣ ، ص ٤٦٦ ، بها تنوخ وبهراء .

١ – أن الغلبة للإيمان مهما قلت عدته ، وصغر عدد حملته ..

٢ – أن الهزيمة للكفر وأهله مهما كثر عدد أفراده وكثرت عدتهم .

٣ – أن الذى تولى قيادة الجيش بعد استشهاد أمرائه الثلاثة هو خالد ابن الوليد – رضى الله عنه وأرضاه –، وهو قائد الجيوش الإسلامية فى معركة اليرموك ، فهل كان هذا مصادفة ؟ أم أنه تقدير العزيز العليم ؟؟

فهو الذى قدر الله على يديه هزيمة الأوروبيين (الروم) وخروجهم من بلاد الشام .

٤ – أن مغتصبى أرض الشام من الأوروبيين (الروم) لم يكونوا يواجهون المسلمين وحدهم ، بل كان متحالفاً معهم عددٌ كبير من نصارى الشام العرب[1] ، وهذا الموقف هو نفس الموقف الذى يتكرر الآن ، فالعدو اليهودى وأبناء أوروبا يتحالف معهم ضد المسلمين النصارى (المارون العرب) ، والدروز العرب ، والشيعة العرب ، والنصيريون العرب ، إلى آخر هؤلاء من أعداء الإسلام ، وللأسف فإن الأمة لا تستفيد من توجيهات ربها ورسولها ، بل ولا تتعظ من تاريخها ، فلا زال يعيش بيننا حتى الآن من يضع يده فى أيدى هؤلاء الذين لا يريدون أن ترتفع للإسلام راية .

– أن مهاجمة الأعداء خير وسيلة للكسب والنصر ، وهذا ما فعله رسول الله – ﷺ – وصحبه – رضوان الله عليهم –، أن هذه الغزوة كانت بمثابة الطلقة الأولى التى أطلقها رسول الله محمد – ﷺ – لتوجيه نظر الصحابة – رضوان الله عليهم –؛ لتحرير هذه الأرض المباركة من أيدى طواغيت الأوروبيين (الروم) ومن شايعهم .

(ج) غزوة تبوك :

« وفى سنة تسع من الهجرة ، فى زمان عسرة من الناس وشدة من الحر وجدب من البلاد وحيث طابت الثمار .. أمر رسول الله محمد – ﷺ – أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم ، وخرج رسول الله – ﷺ – فى ثلاثين ألف من أصحابه –

---

(١) السيرة النبوية ، ج ٣ ، ص ٤٦٧ .

رضوان الله عليهم -، ولما انتهوا إلى تبوك ، أتاهم يُحَنَّة بن رؤبة صاحب أيلة ، فصالح رسول الله - ﷺ - وأعطاء الجزية ، وأتاه أهل جَرباء وأذْرح فأعطوه الجزية ، وكتب لهم رسول الله - ﷺ - كتابا » .

« فأقام رسول الله - ﷺ - بضع عشرة ليلة لم يجاوزها ثم انصرف قافلا إلى المدينة بعد أن هرب الروم من وجهه »[1] .

وكانت هذه الغزوة تأكيدا لغزوة مؤتة وبيانا عمليا منه - ﷺ -، أنه لا يجوز أن يكون هنالك مسلمون موحدون يعيشون على سطح الأرض ، وتكون أرض الشام محتلة بكفار يعيثون فى الأرض فسادا ، ويحكمون بغير شرع الله .

(د) حملة أسامة بن زيد - رضى الله عنه -:

وقبل أن يُتَوَفَّى الرسول - ﷺ - عقد اللواء لجيش بقيادة أسامة ابن زيد ، وأمره بالمسير إلى تخوم البلقاء من الشام ، حيث قتل زيد بن حارثة ، وجعفر ، وابن رواحة ، فَيَغْتَزُّوا على تلك الأراضى .

ولعل فى هذا إشارة من الرسول - ﷺ - إلى صحابته من بعده ، أن ما بدأه لابد أن يستمر ، وأنه لابد من مواصلة الجهاد فى سبيل الله حتى يسقط طواغيت الروم ، وتتحرر بلاد الشام - بما فى ذلك بيت المقدس - من ربقة الاحتلال الأوروبى ومن شايعهُ من أبناء العرب المشركين .

ووعى أبو بكر الصديق رضى الله عنه توجيه رسول الله - ﷺ -، وأصر عليه ، فحينما أشار كثير من الناس على الصديق أن لا ينفذ جيش أسامة لاحتياجه إليه فيما هو أهم ، امتنع الصديق - رضى الله عنه - من ذلك ، وأبى أشد الإباء إلا أن ينفذ جيش أسامة وقال : (والله لا أحل عقدة عقدها رسول الله - ﷺ -) .

« ووصل أسامة وجيشه إلى تخوم البلقاء ، فأقاموا أربعين - ويقال : سبعين - يوما ، ثم أتوا سالمين . فكان خروج جيش أسامة فى ذلك الوقت من

---

(١) السيرة النبوية ، جـ ٤ ، ص ٣ وما بعدها .

أكبر المصالح والحالة تلك ، وكان ذلك سنة إحدى عشرة من الهجرة »[1] .

(هـ) **أبو بكر الصديق – رضى الله عنه** – يوجه أربعة جيوش إلى بلاد الشام لتحريرها من الاحتلال الرومى ومن شايعه من العرب .

(و) **أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضى الله عنه** – يتسلم مفاتيح القدس .

وفى سنة ثلاث عشرة من الهجرة وجه أبو بكر الصديق – رضى الله عنه – أربعة[2] جيوش إلى بلاد الشام ، الأول بقيادة يزيد بن أبى سفيان ووجهته دمشق ، والثانى بقيادة أبى عبيدة بن الجراح وجعل له نيابة حمص ، وبعث عمرو ابن العاص ومعه جند آخر وجعله على فلسطين ، ثم تبعه جيش رابع بقيادة شرحبيل بن حسنة ، كما سير أبو بكر – رضى الله عنه – جيشا آخر بقيادة سيف الله المسلول خالد بن الوليد – رضى الله عنه –.

وفى سنة خمس عشرة من الهجرة حاصر الصحابى الجليل أبو عبيدة ابن الجراح – رضى الله عنه وأرضاه – بيت المقدس ، ووجه إلى أهلها الرسالة التالية :

« بسم الله الرحمن الرحيم

من أبى عبيدة بن الجراح إلى بطارقة أهل إيلياء وسكانها . سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله وبالرسول . أما بعد فأنا أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله . وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور ، فإن شهدتم بذلك ، حَرُمَتْ علينا دماؤكم وأموالكم وذراريكم ، وكنتم لنا إخوانا . وإن أبيتم فأقروا لنا بأداء الجزية عن يد وأنتم صاغرون . وإن أنتم أبيتم سرت إليكم بقوم أشد حبا للموت منكم إلى شرب الخمر ، وأكل لحم الخنزير ، ثم لا أرجع عنك إن شاء الله أبدا حتى أقتل مقاتليكم ، وأسبى ذراريكم » .

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ٦ ، ص ٣٠٤ .

(٢) البداية والنهاية ، جـ ٧ ، ص ٢ وما بعدها .

ولكن المغتصب الأجنبى رفض فى البداية معتمدا فى ذلك على بعض أبناء الأرض المحتلة ، فضيق عليهم أبو عبيدة – رضى الله عنه – حتى أجابوه إلى الصلح بشرط أن يقدم إليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . فسار إليهم أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب وصالح نصارى بيت المقدس ، واشترط عليهم إجلاء الروم إلى ثلاث ، ثم دخلها ودخل المسجد من الباب الذى دخل منه رسول الله – ﷺ – ليلة الإسراء[1] ..

وهكذا بعد جهاد استمر سبع سنوات ، نجح صحابة رسول الله – ﷺ – والمسلمون فى تطهير بلاد الشام من رجس الاحتلال الأوروبى (الرومى) ومن عاونه من أبناء العرب المشركين بعد سبعة قرون من الاحتلال ، وفتح الله على المسلمين أغلب مدن الشام .

وفى هذا بيان ﴿ لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ .

– أن الطريق لتحرير الأرض من حكم الطواغيت ومنهم طواغيت الروم والعرب المشركين ، هو الجهاد فى سبيل الله ، ولا طريق غيره .

– وأن الإيمان بالله عز وجل ، والانضباط مع أوامره ونظامه وشرعه ، هو الغالب فى أى معركة يقف فيها الحق والباطل وجها لوجه .

– وأن أهل الباطل من الأوروبيين الذين اغتصبوا الأرض التى بارك الله فيها للعالمين ، لم يغن عنهم جمعهم وعدتهم شيئا فى مواجهة المجاهدين المخلصين من جند الحق رغم قلة عدتهم وعددهم .

– أن أرض الشام قد تعرضت لاحتلال دام سبعة قرون كاملة ، رغما عن أنوف الجيل الجبان من أهلها ، واستمر ذلك حتى قيض الله للأمر محمدا وصحبه من المسلمين ، أى أن الجيل المؤهل لإنهاء الاغتصاب اليهودى الأوروبى لأرض الشام ، هو الجيل المسلم .

أى أن الجيل المؤهل لانهاء هذا الغصب اليهودى للأرض المباركة ، هو الجيل المسلم المجاهد ، كما بشر بذلك رسول الله – ﷺ –: « لا تقوم الساعة

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ٧ ، ص ٥٥ .

حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون ، حتَّى يختبىء اليهودى وراء الحجر والشجر ، فيقول الحجر أو الشجر : يا مسلم ، يا عبد الله ! هذا يهودى خلفى فتعال فاقتله إلا الغرْقد فإنه من شجر اليهود »[1] .

الجــزء الثــانى

أولا : الدولة الإسلامية على عهد بنى أمية :

ظلت الشام أرضا إسلامية ، تحكم من عاصمة الخلافة فى دمشق حتى عام ١٣٢ هـ/٧١٢ م .

ثانيا : الدولة الإسلامية على عهد بنى العباس :

استمرت بلاد الشام - بما فى ذلك بيت المقدس - جزءا من أرض الإسلام حتى القرن الخامس الهجرى .



(١) صحيح الجامع الصغير ، حديث رقم ٣٠٧٨/٧٣٠٤ .

الفصـــل الثالـــث

الجـــزء الأول

أوروبا تجهز حملات صليبية لإعادة اغتصـــاب الشـــام

إن أوروبا بعد خروجها من بلاد الشام فى القرن الأول الهجرى ÷ ظلت تتحين الفرصة للعودة لاغتصاب تلك البلاد مرة أخرى ، وقد أتيحت لها الفرصة حينما ازداد الصراع بين المسلمين على السلطة ، وتفككت عرى الخلافة الإسلامية ، وتسلط الإسماعيلية والعبيديون (٢٩٦ - ٣٢٢ هـ) - الذين زعموا أنهم ينتسبون إلى فاطمة بنت رسول الله ﷺ والرسول منهم براء - على أرض أفريقية ومصر وبلاد الشام والرافدين ، فقتلوا العلماء وأفسدوا عقيدة أهل الشام ومصر وأهل الرافدين .

وكان على المغامرين وقطاع الطرق من أبناء أوروبا ، أن يتظاهروا فى غزوهم بأنهم أصحاب عقيدة ، وأن لهم مقدسات يرغبون فى استرجاعها فى أرض الشام .

ومن هنا غزوا ديار الشام وهم يحملون الصليب ، ويزعمون أنهم ورثة عيسى - عليه السلام - وأن القدس نصرانية ، وأن الأقصى فى الأصل كان كنيسة قد بناها الإمبراطور جستنيان للعذراء مريم[١] .

ولما كان ضحى يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان فى سنة ثنتين وتسعين وأربعمائة ، اغتصب الأوروبيون - لعنهم الله - بيت المقدس ، شرفه الله - وقتلوا

---

(١) حضارة العرب ، تأليف جوستاف لوبون ، ص ١٦٢ .

فى وسطه ما يزيد على سبعين ألفا[1] من المسلمين ، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم .

لكن لن يفوتنا هنا أن نذكر أن أخطر ما تعرضت له بلاد الشام من غصب كان أثناء حكم العبيديين (الفاطميين)[2] لمصر وبلاد الشام ، ففى أثناء حكمهم كما يقول الإمام الحافظ ابن كثير : (كثر بأرض الشام النصرانية والدرزية والحشيشية ، وتغلب الفرنج « الأوروبيون » على سواحل الشام بكماله ، حتى أخذوا القدس ونابلس وعجلون والغور وبلاد غزة وعسقلان وكرك الشوبك وطبرية وبانياس ، وصور ، وعكا وصيدا ، وبيروت ، وصفد ، وطرابلس ، وأنطاكية ، وجميع ما إلى ذلك ، إلى بلاد إياس وسيس ، واستحوذوا على بلاد آمد والرها ، ورأس العين ، وبلاد شتى غير ذلك ، وقتلوا من المسلمين خلقا وأمما لا يحصيهم إلا الله ، وسبوا ذرارى المسلمين من النساء والولدان مما لا يحد ولا يوصف)[3] .

ومن دراسة أسباب نجاح هذا الغزو والغصب لأرض الإسلام بالشام تبرز جملة أمور :

أن اغتصاب أوروبا لبلاد الشام فى بداية القرن الخامس الهجرى ، والانفراد بالمسلمين ، ومحاولة القضاء عليهم سبقه عدة أمور :

الأولى : زرع دولة شيعية مؤسسها يهودى أو مجوسى من سلمية (عبيد ؟؟ المهدى) ترفع شعار الإسلام ، بادعاء انتسابها إلى فاطمة بنت رسول الله محمد - ﷺ -[4] ، تهدف إلى عزل دول الشمال الأفريقى ، وخاصة مصر عن بقية بلاد الشام أثناء تعرضه للغزو الصليبى .

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ١٥٦ ؛ الكامل فى التاريخ جـ ٨ ، ص ١٨٩ .

(٢) أول من قام منهم بالمغرب عبيد الله سنة ست وتسعين ومائتين ، تاريخ الخلفاء ، ص ٥٢٤ ، وانهارت دولتهم عام ٥٦٧ هـ .

(٣) البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢٦٧ : (الحكام الفاطميون كانوا من أنجس الملوك سيرة وأخبثهم سريرة ، وظهر فى دولتهم البدع والمنكرات وكثر أهل الفساد ، وقتل عندهم الصالحون من العلماء والعباد ، ومؤسس دولتهم من أصل يهودى ، وسنعود إلى هذا الموضوع مرة أخرى ، بإذن الله) .

(٤) تاريخ الخلفاء ، ص ٤ ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢٦٧ .

الثانية : هذه الدولة كانت لها مراسلات وسفارات[1] مع الأوروبيين الصليبيين الذين عادوا لاغتصاب أرض الشام ومصر ، بل من الثابت أنها طلبت منهم المعاونة ضد نور الدين زنكى وأسد الدين شيركوه وصلاح الدين .

الثالثة : أن حكام هذه الدولة حرصوا على هدم الخلافة العباسية ، التى كانت تحتاج إلى من يدعمها ويساندها ويأخذ بيدها بدلا من الحرص على هدمها ، لأن الخلافة هى السياج الحامى بعد الله لبلاد المسلمين من كيد أعدائها .

الرابعة : ظهور الباطنية القرامطة[2] ، الذين يدعون انتسابهم إلى على بن أبى طالب – رضى الله عنه –، الذين عملوا على هدم الخلافة العباسية ، وإفساد عقيدة الأمة (مؤسسها أبو سعيد الجنابى رأس القرامطة) (سنة خمس وثمانين ومائتين) ، والعجيب أنهم قصدوا دمشق فى جحفل عظيم فقاتلهم نائبها فهزموه عدة مرات ، وكان ذلك بقيادة يحيى بن زكرويه بن بهرويه الذى ادعى عند القرامطة أنه محمد بن عبد الله بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين ابن على بن أبى طالب ، وقد كذب فى ذلك .

الخامسة : حرص حكام الدولة التى تسمى زورا وبهتانا بالدولة الفاطمية على إفساد عقيدة السلف ، عقيدة الأمة المسلمة ، ويدخل فى ذلك محاولة فرض المذهب الشيعى بالقوة على الأمة ، وقتل أهل السنة والجماعة ، وعلمائهم وفقهائهم ، وسب الخلفاء الراشدين ، وصحابة رسول الله – رضوان الله عليهم – على المنابر ، كما أن بعض حكامهم قد ادعوا الألوهية .

السادسة : عزل مسلمى مصر عن إخوانهم فى بلاد الشام والشمال

---

(١) أرسلوا سفارة إلى معسكر الصليبيين عند أنطاكيا عام ٤٩٢ هـ، عرضت عليهم اقتراحا يتضمن اقتسام أملاك السلاجقة (المسلمين) بالشام ، فيكون للصليبيين أنطاكيا وشمال الشام ويكون للفاطميين فلسطين ، وهكذا نرى الذين يدّعون انتسابهم إلى بنت رسول الله – ﷺ – يعادون إخوانهم فى الإسلام ويوالون أعداء الإسلام ضد إخوانهم ، ويساومونهم على بلاد المسلمين ، بدلا من أن يجاهدوهم (انظر ابن القلانسى ذيل تاريخ دمشق) ص ١٣٥ ؛ الكامل فى التاريخ ، جـ ٨ ، ص ١٨٦) .

(٢) البداية والنهاية ، جـ ١١ ، ص ٨١ ، ٨٥ .

الإفريقى ، وأثناء هذا العزل جرى القضاء على المقاومة الإسلامية ببلاد الشام والاستيلاء عليها .

وهذا هو الذى تكرر فى عصرنا ، فقد عزلت مصر عن العالم العربى والإسلامى ، وضرب الإسلام فيها وفى غيرها من البلاد العربية والإسلامية ، وتفككت عرى البلاد العربية والإسلامية ، واختلف الحكام العرب ، وانشغل بعضهم ببعض فى الوقت الذى واصل اليهود فيه ضربهم لكل القوى العربية الإسلامية ، وتمزيق صفوفها ، لكى يحققوا هدفهم – لا مكنهم الله من ذلك – فى إقامة دولة يهودية عالمية تمتد بداية من النيل إلى الفرات ، لأنّهم يحلمون بما هو أكبر من ذلك ، إذ أنهم يحلمون بخيبر وبنى النضير وجنوب الجزيرة العربية .



الجـــزء الثانـــى

الله سبحانـه وتعالـى

يقيض آل زنكى بن آقسنقر (عماد الدين زنكى ، ونور الدين محمود) وآل أيوب (أسد الدين شيركوه ، ونجم الدين أيوب ، وصلاح الدين يوسف بن أيوب) وغيرهم لتحرير مصر وبلاد الشام من أيدى الغاصبين مع بداية القرن السادس الهجرى

لقد كانت الأمة المسلمة فى عافية من دينها ، رغم الفتن التى تعرضت لها ، ولهذا فإن إرادة الله شاءت أن لا تنقطع المقاومة الإسلامية للأوربيين المغتصبين ومن شايعهم من نصارى الشام والإسماعيلية والعبيديين والأرمن وغيرهم على مدار التاريخ .

وشاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يقيض لهذه الغزوات الأوروبية الحاقدة والحركات الباطنية رجالا حملوا على عاتقهم مسئولية التصدى لها ، وتحرير بلاد الإسلام من قبضتها .

وأبرز هؤلاء الرجال :

عماد الدين زنكى بن آقسنقر[1] .

---

(١) الذى ولى أمر الموصل وحلب وغيرها من المدن الشامية والجزيرة منذ عام ثمان وثلاثين وخمسمائة . (انظر : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ، تأليف ابن الأثير ، والروضتين لأبى شامة ؛ والبداية والنهاية ، جـ ١٢) .

نور الدين محمود زنكى .

أسد الدين شيركوه .

نجم الدين أيوب .

صلاح الدين يوسف بن أيوب .

ومما لا شك فيه أيضا أن الله سبحانه وتعالى قد وفق هؤلاء القادة لإدراك خطورة الهجمة الأوروبية على بلاد المسلمين التى تستهدف الإسلام بالدرجة الأولى ، وتستهدف الأرض والثروة والعرض ، ولذلك فقد وفقوا أيضا - بفضل الله - لتنفيذ خطة لإنهاء هذه الهجمة الشرسة ، واستعادة ديار الإسلام ، بما فى ذلك بيت المقدس ، وإقامة حكم الله عليها .

هذه الخطة تعتمد على :

أولا : تحديد الأعداء الحقيقيين للأمة المسلمة الذين ساهموا فى تنفيذ مخططات الأعداء أو الذين وقفوا موقفا سلبيا من تنفيذها .

هؤلاء الأعداء هم :

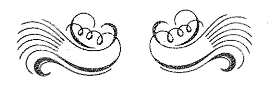
الأوربيون الذين كانوا يرفعون شعار الصليب ، يعاونهم النصارى والأرمن ، والإسماعيلية والدرزية والحشيشية والعبيدية ، وفئات من المسلمين تصورت أن السلامة فى اجتناب خوض الصراع ضد الأعداء ، واجتناب الانحياز إلى الفئة المسلمة المجاهدة ، وآثرت الحياة الذليلة ، وموقف المتفرج على العرض الإسلامى وهو ينتهك ، وأرض الإسلام وهى تتعرض للغصب ، ودين الله يحارب وينحى عن تسيير حياة بنى آدم .

ثانيا : توحيد مجموع الأمة المسلمة ، وتَجْديد الإيمان الصحيح فى قلوبهم ، وتربيتهم على حب الجهاد فى سبيل الله لإنهاء الهجمة الشرسة ، واستعادة بلاد الإسلام ، وإقامة حكم الله عليها .

ثالثا : الشد من أزر الخلافة العباسية ، ليظل علم الخلافة مرفوعا ، رمزاً لوحدة العالم الإسلامى ، ولأن الخلافة هى السياج الحامى للأمة الإسلامية .

رابعا : الجهاد والثبات والتضحية :

لقد أدرك هؤلاء القادة المسلمون بداية بعماد الدين زنكى ، أنه مع السعى لتحقيق الخطوة الثانية السابقة ، لابد من أخذ زمام المبادرة ضد تجمعات العدو بأرض الشام وغيرها ، وضربها ومحاولة إنهاكها حتى لا تكتسب موقعا ترسخ فيه وجودها لتنطلق منه إلى موقع آخر .



الجـــزء الثالـــث

« عماد الدين زنكى يجاهد أعداء الإسلام »

وهذا ما فعله عماد الدين زنكى ، الذى بدأ جهادا حقيقيا ضد الفرنج : (الصليبيين وأعوانهم) . ففى عام ٥٣٩ هـ استرجع عماد زنكى (الرها) وغيرها من حصون الجزيرة من أيدى الفرنج[1] ، وقتل منهم خلقا كثيرا ، وسبى نساء كثيرة وغنم أموالا جزيلة ، وأزال عن المسلمين كربا شديدا . وفى سنة ٥٤١ هـ سير جيشا إلى قلعة فنك وهى تجاور جزيرة ابن عمر . وفى عام ٥٤١ هـ قُتِلَ عماد الدين زنكى وهو يحاصر حصن جعبر (وهو مطل على الفرات) . يقول ابن الأثير : (جماعة من مماليكه قتلته غيلة)[2] . وغالبا ، أن قتله كان مؤامرة قد دبرت بيد أعدائه وخاصة الباطنية الذين عرفوا بالاغتيالات للعناصر الإسلامية المجاهدة منذ القرن الثالث الهجرى ، وإن كان تاريخهم يرجع إلى قبل ذلك بزمن طويل .

---

(١) وكان ضررهم قد عم بلاد الجزيرة (العراق وشمال شرق سورية حاليا) وشرهم قد استطار فيها ووصلت غاراتهم إلى أدانيها وأقاصيها ، وبلغ آمد ونصيبين ورأس العين والرقة ، وكانت قاعدتهم بهذه الديار من قرب ماردين إلى الفرات مثل : الرها وسروج والبيرة وسن ابن عطية وحملين والموزر والفرادى وغير ذلك . (الكامل فى التاريخ ، جـ ٩ ، ص ٨ وما بعدها ؛ التاريخ الباهر ، ص ٦٦ - ٧٠ ؛ النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٢٧٥) .

(٢) البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ؛ الكامل فى التاريخ ، جـ ٩ ، ص ٨ ، ١٢ ، ١٣ . يقول عنه الحافظ ابن كثير : (وقد كان زنكى من خيار الملوك وأحسنهم سيرة وشكلا ، وكان شجاعا مقداما حازما ، خضعت له ملوك الأطراف ، وكان من أشد الناس غيرة على نساء الرعية ، وأجود الملوك معاملة ، وأرفقهم بالعامة) . ويقول عنه ابن الأثير : (كان شديد الهيبة على عسكره ورعيته ، عظيم السياسة ، لا يقدر القوى على ظلم الضعيف ، وكانت البلاد قبل أن يملكها خرابا من الظلم وتنقل الولاة ومجاورة الفرنج ، فعمرها وامتلأت أهلا وسكانا ، وكان أيضا شديد الغيرة لا سيما على نساء الأجناد ، وكان =

الجـــزء الرابـــع

نور الدين محمود وسيف الدين غازى يحملان راية الجهاد بعد استشهاد والدهما عام ٥٤١ هـ[١]

يقول ابن الأثير : (لما قتل أتابك زنكى ، أخذ نور الدين محمود ولده خاتمه من يده[٢] ، وكان حاضرا معه وسار إلى حلب فملكها)

= أشجع خلق الله أمّا قبل أن يملك فيكفيه أنه حصر مع الأمير مودود صاحب الموصل مدينة طبرية وهى للفرنج فوصلت طعنته باب البلد وأثرت فيه ، وحمل أيضا على قلعة عقر الحميدية وهى على جبل عال فوصلت طعنته إلى سورها إلى أشياء . وأما بعد الملك فقد كان الأعداء محدقين ببلاده وكلهم يقصدها ويريدون أخذها ، وهو لا يقنع بحفظها حتى أنه لا ينقضى عليه عام حتى يفتح من بلادهم (أى التى اغتصبها الفرنج) . فقد كان الخليفة المسترشد بالله مجاوره فى ناحية تكريت وقصد الموصل وحَصَرها، ثم إلى جانبه من ناحية شهرزور وتلك الناحية السلطان مسعود ، ثم ابن سقمان صاحب خلاط ، ثم داود بن سقمان صاحب حصن كيفا ، ثم صاحب آمد وماردين ، ثم الفرنج من مجاورة ماردين إلى دمشق ، ثم أصحاب دمشق ، فهذه الولايات قد اختلطت بولايته من كل جهاتها ، فهو يقصد هذا مرة وهذا مرة ، ويأخذ من هذا ويصانع هذا إلى أن ملك من كل من يليه طرفا من بلاده) .

وهكذا يتبين للقارىء التفكك الذى كانت عليه الأمة المسلمة ، وكيف أن بعض حكام المسلمين قد انشغلوا بأنفسهم عن عدوهم . ويتبين أيضا صفات الجيل المجاهد لإنهاء العدوان الواقع على الأمة المسلمة ، ومنه القائد المسلم المجاهد الذى انطلق يجاهد ابتغاة مرضاة الله ، التاريخ الباهر ، ص ٧٤ ، ٧٦ — ٨٤ ؛ النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٢٧٩ .

(١) وفى هذا العام اغتصب الفرنج طرابلس الغرب ، وهكذا نرى أن الهجمة الأوربية كانت تريد أن تمتلك العالم الإسلامى كله ، كما هى راغبة الآن .

(٢) هذا نموذج نقدمه لقادة المسلمين ، القائد عماد الدين زنكى رحمه الله تعالى لا يترك ابنه خلفه فى بيته إنه يحب له ما يحب لنفسه ، إنه يحب له أن يكون مجاهدا فى سبيل الله حتى لو أدى الأمر إلى استشهاده ، هذا نموذج نسوقه للقادة الذين يقبعون تحت الأرض وخلف الأسوار فى معارك أممهم مع الأعداء ، ويتركون جنودهم وضباطهم يواجهون قوات الأعداء ، بدلا من أن يتقدموا الصفوف ، ويسعون فى طلب الشهادة . (انظر : الكامل فى التاريخ ، جـ ٩ ، ص ١٣ ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢٢١) .

وأما الولد الآخر وهو سيف الدين غازى فقد قام بالأمر بعد أبيه فى الموصل .

وحمل هذان الشابان مسئولية جهاد أعداء الإسلام بعد والدهما[١] ، وكانت لهما مواقع كثيرة مع الأعداء نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

- عام ٥٤٢ هـ استعاد نور الدين محمود زنكى عدة حصون من يد الفرنج على السواحل .

- عام ٥٤٣ هـ لما حاصرت الفرنج وهم فى سبعين ألف مقاتل ، ومعهم ملك الألمان فى خلق لا يعلمهم إلا الله عز وجل دمشق ، وعليها مجير الدين وأتابكه معين الدين ، وهو مدبر المملكة ، وذلك يوم السبت سادس ربيع الأول ، فخرج إليهم أهلها فاقتتلوا قتالاً شديدا ، وقتل من المسلمين فى أول يوم نحو من مائتى رجل ، ومن الفرنج خلق كثير لا يحصون واستمرت الحرب مدة ... واستغاث مجير الدين بنور الدين محمود صاحب حلب ، وبأخيه سيف الدين غازى صاحب الموصل ، فقصداه سريعا فى نحو من سبعين ألف مقاتل ، فلما سمعت الفرنج بقدوم الجيش تحولوا عن البلد ، فلحقهم الجيش ، فقتلوا منهم خلقا كثيرا ، وجما غفيرا ، وقتلوا قسيسا معهم اسمه إلياس ، وهو الذى أغراهم بدمشق وقد قتل الفرنج خلقا كثيرا من أهل دمشق ، وممن قتلوا : الفقيه الكبير الملقب بحجة الدين يوسف ابن ذى باس الفندلاوى المغربى (شيخ المالكية بها) وكان شيخا كبيرا[٢] .

وهذه الواقعة تؤكد :

(أ) تعاون نصارى الشام مع المغتصب الأوربى الذى كان يتستر بستار الصليب .

---

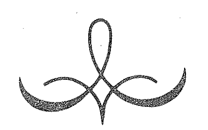
(١) وهذا يبين لنا ضرورة أن يعد القائد المسلم أبناءه وأبناء المسلمين للجهاد فى سبيل الله .

(٢) فلما رآه معين الدين - وهو راجل - قصده وسلم عليه وقال له : يا شيخ أنت معذور لكبر سنك ، ونحن نقوم بالذب عن المسلمين . وسأله أن يعود فلم يفعل وقال له : قد بعت واشترى منى ، فوالله لا أقلته ولا استقلته . يعنى قول الله تعالى : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ . وتقدم فقاتل الفرنج حتى قتل عند النيرب ، نحو نصف فرسخ عن دمشق . (الكامل فى التاريخ ، جـ ٩ ، ص ٢٠ ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢٢٤) .

(ب) علو همة سيف الدين غازى ونور الدين محمود حينما لبيا نداء أخيهما مجير الدين .

(جـ) دور العلماء المجاهدين فى تحرير بلاد الشام .

(د) أن أبناء عماد الدين زنكى لم ينقطعوا عاما عن الجهاد فى سبيل الله .



الجـــزء الخامـــس

وفاة سيــف الديـــن

نور الدين يواصل معارك التحرير

– عام ٥٤٤ هـ توفى سيف الدين غازى بن أتابك زنكى صاحب الموصل ، وواصل نور الدين محمود جهوده لجمع شمل الأمة المسلمة التى كان يرى (١) بعض حكامها سلامتهم فى مداهنة الصليبيين ، وفى نفس الوقت واصل جهاده لإنهاء الهجمة الصليبية .

– وفى عام ٥٤٤ هـ غزا نور الدين محمود بن زنكى المنطقة التى كان يحتلها الصليبيون من ناحية أنطاكية(٢) ، وقد حقق نصرا كبيرا وأكثر الشعراء مديح نور الدين وتهنئته بهذا الظفر .

(وباشر نور الدين القتال ذلك اليوم فانهزم الفرنج أقبح هزيمة ، وقتل منهم جمع كثير ، وأسروا مثلهم ، وكان ممن قتل البرنس صاحب أنطاكية ، وكان عاتيا من عتاة الفرنج) .

وقد قال القيسرانى الكاتب قصيدة بهذه المناسبة ، أولها :

---

(١) الكامل فى التاريخ ، جـ ٩ ، ص ٢٤ .

(٢) الكامل ، جـ ٩ ، ص ٢٥ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ ؛ الروضتين ، جـ ١ ، ص ٢٨ .

* الدولة الأتابكية دولة إسلامية ظهرت فى النصف الغربى من دولة الخلافة العباسية أسسها قيّم الدولة آقسنقر الحاجب بمدينة الموصل سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧ م) وشملت فى عهد ابنه نور الدين محمود الموصل والجزيرة والشام ومصر واليمن ؛ الروضتين ، جـ ١ ، ص ٢٤ .

هذه العزائم لا ما تدعى القضب وذى المكارم لا ما قالت الكتب
وهذه الهمم التى متى خطبت تعثرت خلفها الأشعار والخطب
صافحت يا بن عماد الدين ذروتها براحة للمساعى دونها تعب
ما زال جدك يبنى كل شاهقة حتى بنى قبة أوتادها الشهب
أغرت سيوفك بالإفرنج راجفة فؤاد رومية الكبرى لها يجب
ضربت كبشهم منها بقاصمة أودى بها الصلب وانحطت بها الصلب
طهرت أرض الأعادى من دمائهم طهارة كل سيف عندها جنب

– عام ٥٤٥ هـ يقول ابن الأثير : (فتح نور الدين محمود بن الشهيد زنكى حصن فاميا من الفرنج ، وهو مجاور شيزر وحماة على تل عال من أحصن القلاع وأمنعها)[١] .

– عام ٥٤٦ هـ واصل نور الدين محمود جهاده ، وأسر أحد شياطين الصليبيين وهو (جوسلين) الفرنجى ، وكان شيطانا عاتيا ، شديدا على المسلمين ، قاسى القلب ، ولَّما أُسِرَ سار نور الدين إلى قلاعه شمال حلب فملكها (وهى : تل باشر ، وعين تاب ، وإعزاز ، وتل خالد ، وقورس ، والراوندان وبرج الرصاص ، وحصن البارة ، وكفر سود)[٢] ..

وكان نور الدين محمود كلما فتح حصنا نقل إليه كل ما تحتاج الحصون خوفا من نكبة تلحق المسلمين من الفرنج ، فتكون بلادهم غير محتاجة إلى ما يمنعها من العدو »[٣] .

وواصل نور الدين محمود جهاده للصليبيين :

– ففى عام ٥٤٧ هـ اقتتل نور الدين مع الفرنج عند (دلوك) وهزم الفرنج ، وعاد نور الدين إلى دلوك فتملكها ، واستولى عليها . ومما قيل فى ذلك :

---

(١) الكامل ، جـ ٩ ، ص ٢٩ ، البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ .
(٢) الكامل ، جـ ٩ ، ص ٢٩ ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢٢٨ .
(٣) المصدر السابق ، جـ ٩ ، ص ٢٩ ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢٢٩ .

أعدت بعصرك هذا الانيـــق فتوح النبى وأعصارهـا
فواطأت يا حبذا أحد بهـــا وأسررت من بدر أبدارها
وكان مهاجرها تابعـــيك وأنصـــــار رأيـــــك
فجـــددت إسلام سلمـــانها وعمر جدك عمـــارهـــا[1]

(١) الكامل : جـ ٩ ، ص ٣٢ ، ٣٣ .

الجــــزء الســـــادس

نور الدين محمود يعيد دمشــق إلى الصف المسلم

– وفى عام (٥٤٩ هـ) تسع وأربعين وخمسمائة استرد نور الدين محمود ابن زنكى بن آقسنقر مدينة دمشق ، وأخذها من صاحبها مجير الدين أبق ابن محمد بن بورى بن طغدكين أتابك وكان سبب حرصه على ملكها : أن الفرنج لما ملكوا فى العام الماضى عسقلان لم يكن لنور الدين طريق إلى إزعاجهم عنها لاعتراض دمشق بينه وبين عسقلان ، فلما ملك الفرنج عسقلان طمعوا فى دمشق ، وكان لهم على أهلها كل سنة قطيعة يأخذونها منهم ، فكان رسلهم يدخلون البلد ويأخذونها منهم . فلما رأى نور الدين ذلك خاف أن يملكها الفرنج ، فلا يبقى للمسلمين حينئذ بالشام مقام ، فأعمل الحيلة فى أخذها ، وتوجه نور الدين محمود إلى دمشق .

والعجيب أن مجير الدين (وهو عربى من عرب الشام) بعث رسالة إلى الفرنج ، يبذل لهم الأموال وتسليم قلعة بعلبك إليهم لينجدوه ويرحلوا نور الدين عنه .

ورغم ذلك فقد نجح نور الدين فى أخذ دمشق[1] ؛ والعجيب أن ملوك الفرنج كتبوا إليه يهنئونه بدمشق ويتقربون إليه ، ويخضعُون له[2] .

وهنا يبدو أمر هام ، وهو تعاون بعض أبناء الشام من أبناء العرب

---

(١) الكامل فى التاريخ ، جـ ٩ ، ص ٤٥ – ٤٦ ، كما ملك فى نفس العام تل باشر وهى قبل دمشق وشمال حلب ، وفى عام اثنين وخمسين وخمسمائة ملك نور الدين بعلبك ، نفس المصدر السابق ، ص ٢٧ . وملك حارم سنة خمس وخمسين وخمسمائة (ص ٨٦) وقلعة بانياس (ص ٨٧) ؛ التاريخ الباهر ، ص ٨٩ .

(٢) البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢٣٢ .

والمسلمين مع المغتصب الأجنبى حماية لوجوده ، فى مقابل بقائهم على كرسى السلطة ، وهذا هو واقع بلاد الشام الآن .

ويبدو أيضا واضحا أن مجاهدة هؤلاء الخونة المتعاونين مع الأعداء شرط أساسى وبداية الطريق لاستعادة أرض الإسلام المغتصبة .

معالم يرسيها نور الدين محمود عند إعادة دمشق إلى الصف المسلم :

– معالم يرسيها نور الدين محمود على طريق العودة إلى القدس ، من خلال تعامله مع القاعدين من أبناء المسلمين .

إنَّ من أقسى المواقف على نفس المسلم الحر الأبى ، أن يرى إخوةً له فى الإسلام يقفون موقفا سلبيا حيال إخوانهم الذين يجاهدون أعداء الإسلام وهذا أمر عقدى على جانب كبير من الأهمية ، لأنه من الواجب على المسلم نصرة أخيه المسلم ، فإذا قعد عن نصرته ، وتركه وحده يواجه أعداء الإسلام فقد تعرض لغضب الله – عز وجل –.

– تذكر كتب التاريخ ، أن مجير الدين أبق بن محمد بن بورى بن طغدكين كان يحكم دمشق أثناء الهجمات الصليبية على بلاد الشام ، ولم يكن لهذا الحاكم من الأمر شىء ، وإنما الحكم فى البلد لمعين الدين أنز مملوك جده طغدكين .

هذا الحاكم كان من الواجب عليه حيال هذه الهجمة الصليبية ، أن يسعى إلى دفعها بقدر ما يستطيع : ﴿ يا أيها الذين آمنوا : هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾[1] . أو على الأقل يضع يده فى يد إخوانه القادرين على دفع مثل هذا العدوان : ﴿ إنَّ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض ، والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا ﴾[2] .

---

(١) الصف : ١٠ – ١١ .

(٢) الأنفال : ٧٢ .

– أو يسعى إلى إيجاد الصف القادر على مواجهة هذا العدوان : « فيد الله على الجماعة » « ومن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة » .

ومن هنا نفهم أن مجير الدين ومقدم عساكره معين الدين ، كان من الواجب عليهما أن يمدا أيديهم إلى نور الدين وغيره من أبناء المسلمين الصادقين لمجاهدة الأعداء ، وهذه فريضة فى رقبة كل مسلم : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، فإن انتهوا ، فإن الله بما يعملون بصير ﴾[1] .

– إن الوحدة الإسلامية هنا ضرورة ، والعمل على تحقيقها ضرورى فى مواجهة هجمة أعداء الإسلام : ﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ﴾ [2] . أمر رباني وتشريع سماوى على كل مسلم بحسب استطاعته ، ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص ﴾ [3] .

ولكن مجير الدين ومقدم عساكره ، آثرا الموقف السلبى ، وهو عدم التحرك لمجاهدة أعداء الإسلام وهم يرونهم ينتهكون العرض الإسلامى والأرض الإسلامية ، من منطلق إيثار السلامة ، ونسوا أن الأجل بيد الله ، وأنه لا يستطيع إنسان أن يؤذى الآخر ، أو ينفعه إلاّ بإذن الله ، والله علم البشر درسا : ﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، فقال لهم الله موتوا ، ثم أحياهم ﴾[*] . لقد نسى حاكم دمشق وأعوانه : أن الأعداء لا يطيقون أن يروا صوتا يرتفع بلا إله إلا الله ، وإن تركوا مهاجمته فذلك لفترة محدودة ، وأن الأعداء يخططون للإجهاز عليه ، بعد الإجهاز على بقية الأمة الإسلامية .

وقد كان ، ففى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة هاجم الصليبيون بقيادة ملك الألمان ، مدينة دمشق وحاصروها ، ثم إنهم زحفوا سادس ربيع الأول بفارسهم وراجلهم ، فخرج إليهم أهل البلد والعسكر فقاتلوهم وصبروا لهم –

---

(١) الأنفال : ٣٩ .

(٢) التوبة : ٣٦ .

(٣) الصف : ٤ .

* البقرة : ٢٤٣ .

وفيمن خرج للقتال الفقيه حجة الدين يوسف بن درباس الفندلاوى المغربى .

(وقوى الفرنج وضعف المسلمون ، فتقدم ملك الألمان حتى نزل بالميدان الأخضر ، فأيقن الناس بأنه يملك البلد) .

وهنا أدرك مجير الدين ومعين الدين أن المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه ، لقد أرسل معين الدين إلى سيف الدين غازى بن أتابك زنكى يدعوه إلى نصرة المسلمين وكف العدو عنهم ، فلم يملك سيف الدين غازى إلا الاستجابة لنداء إخوانه فى الإسلام فجمع عساكره وسار إلى بلاد الشام ، واستصحب معه أخاه نور الدين محمود من حلب .

ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله ، يصحب معه أخاه ، ولم يقل يكفى أن أجاهد بنفسى وأستبقى أخى ؟ على العكس ، إنه يريد أن يحشد كل قوة ممكنة على طريق مجاهدة الأعداء وتحرير المسلمين ، يريد أن يغنم أخوه شرف الجهاد فى سبيل الله ، إنهم كانوا يتطلعون إلى جنة عرضها السموات والأرض .

لله دركم يا أبناء العماد ، رحمكم الله ونفع الله بسيرتكم العطرة المسلمين .

« فنزلوا بمدينة حمص ، وأرسل إلى معين الدين يقول له : قد حضرت ومعى كل من يحمل السلاح من بلادى » .

يا لله ، إنه النفير العام إذن ، لأن المستهدف هو الإسلام .

(فأريد أن يكون نوابى بمدينة دمشق لأحضر وألقى الفرنج ، فإن انهزمت دخلت أنا وعسكرى البلد واحتمينا ، وإن ظفرنا فالبلد لكم ، لا أنازعكم فيه) .

ماذا كان رد معين الدين حيال هذه الخطة العسكرية التى يحتمها الموقف ؟ وإذ لم تكن خطة ، أنت استغثت بإنسان فأجابك ، فمن الواجب عليك عند

وصوله أن ترحب به ، وتنزله المنزل الكريم الذى يليق به كإنسان أجابك فى وقت شدة .

ولكن ما حدث من معين الدين ، شىء يدعو إلى العجب ؟؟

لقد أوصد معين الدين ومجير الدين أبواب دمشق أمام سيف الدين غازى ونور الدين محمود ، والأنكى من ذلك أنه أرسل رسالة إلى الفرنج (يتهددهم إن لم يرحلوا عن البلد) بسيف الدين ونور الدين . فرجع (الفرنج خوفا من كثرة الجراح ، وربما اضطروا إلى قتال سيف الدين فأبقوا على نفوسهم) . هذه الأولى !!...

الثانية : لقد أرسل معين الدين إلى الفرنج الغرباء يقول لهم : (إن ملك الشرق - يقصد سيف الدين - قد حضر ، فإن رحلتم وإلا سلمت البلد إليه ، وحينئذ تندمون) .. (وأرسل إلى فرنج الشام يقول لهم : بأى عقل تساعدون هؤلاء علينا ؟ وأنتم تعلمون أنهم إن ملكوا دمشق أخذوا ما بين أيديكم من البلاد الساحلية ، وأما أنا فإن رأيت الضعف عن حفظ البلد سلمته إلى سيف الدين ، وأنتم تعلمون أنه إن ملك دمشق لا يبقى لكم معه مقام فى الشام ، فأجابوه إلى التخلى عن ملك الألمان ، وبذل لهم تسليم حصن بانياس إليهم)[1] .

لا حول ولا قوة إلا بالله ، لقد وقع معين الدين بهذا التصرف فى عديد من الأخطاء :

أولا : أنه ترك إخوانه المسلمين خارج دمشق يواجهون مؤامرات الأعداء .

ثانيا : أنه أفشى أسرار جيش إخوانه فى الإسلام ، حينما أعلم الأعداء أنه لن يسمح لهم بدخول دمشق إلا إذا اضطر أن يحارب الفرنج ويثبت عجزه عن دفعهم .

ثالثا : أنه بذل النصيحة لأعداء الإسلام ، وكان من الواجب عليه أن

---

(١) الكامل فى التاريخ ، جـ ٩ ، ص ٢٠ - ٢١ ، البداية والنهاية جـ ١٢ ، ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .

يجتمع بإخوانه الذين تداعوا لنصرته ، ويخططون لمجاهدة الأعداء قبل أن ينجحوا فى ترسيخ وجودهم بأرض الإسلام .

رابعا : أنه أسلم إخوانه الذين جاءوا لنصرته .

خامسا : أنه بذل أرض المسلمين لأعدائهم حينما أعطاهم بانياس ، وهذه جريمة كبرى .

وهنا نتساءل ما هو موقف المخلصين من المسلمين ؟ ما هو موقف سيف الدين غازى ونور الدين محمود ؟ هل يتركون إخوانهم سادرين فى غيهم دون أن ينبهوهم ؟ هل يتركونهم وشأنهم ؟ أم يضربوا الصفح عنهم ؟...

الواقع أنهم لا يملكون شيئا من ذلك مطلقا ؟ إن الأمر أمر شريعة الله ، إنه أمر هذا الدين ؟ « كلا والله ، لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطرا ، ولتقصرنه على الحق قصرا ، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ، ثم ليلعنكم كما لعنهم »[1] لقد أدرك سيف الدين غازى ونور الدين محمود قول رسول الله ﷺ : « فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا »[2] .

ولكن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر درجات ومع إخوة الإسلام له أساليب شرعية عديدة ، لابد من اتباعها ، لابد من التنبيه أولا إلى مغبة التعاون مع أعداء الإسلام ، والوقوف موقف المتفرج على الدين وهو يمتهن ، وعلى العرض الإسلامى وهو ينتهك .

ففى سنة ٥٤٩ هـ وجه نور الدين محمود رسالة إلى مجير الدين حاكم دمشق وإخوانه : (إننى ما قصدت بنزولى هذا المنزل طالبا لمحاربتكم ، وإنما دعانى إلى هذا الأمر شكاية المسلمين : بأن الفلاحين أخذت أموالهم وشتت نساؤهم وأطفالهم بيد الفرنج وانعدام الناصر لهم ، فلا يسعنى مع ما أعطانى الله – وله الحمد – من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين وكثرة المال والرجال ،

---

(١) جزء من حديث لرسول الله ﷺ ، رواه أبو داود والترمذى . وقال : حديث حسن .

(٢) جزء من حديث لرسول الله ﷺ ، رواه البخارى .

ولا يحل لى القعود عنهم والانتصار لهم ، مع معرفتى بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذب عنها ، والتقصير الذى دعاكم إلى الاستصراخ بالفرنج على محاربتى ، وبذلتم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية ظلما لهم وتعديا عليهم ، وهذا ما لا يرضى الله تعالى ولا أحدا من المسلمين)[1] .

لله درك يا نور الدين محمود ، لله درك يا ابن العماد .. ليت أبناء المسلمين يقرأون فيتعلموا ..

وهنا نرى لزاما علينا أن نقف قليلا عند فحوى هذه الرسالة :

إنها كلمات قلب مكلوم ، يرى الفرنج يتداعون على المسلمين كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها ، وأولو الأمر يقفون مكتوفى الأيدى ، فلا يذبون عن أمتهم ، ولا يدافعون عن رعيتهم ، بل ويصل الأمر إلى أنهم يبذلون أموال المسلمين لأعداء الإسلام ، مع أنه لا يجوز إعطاء الكافرين أموال المسلمين وأرضهم ؛ فكان لابد وأن يتحرك الأبرار الشرفاء .

إن نور الدين محمود رحمه الله يبدو فى هذه الرسالة غير حريص على قتال إخوانه فى الإسلام ، وأن الذى دفعه إلى الخروج والنزول حول دمشق ، هو إغاثة المسلمين المكلومين الذين ابتلوا بالفرنج ، ولا طاقة لهم فى دفعهم – مع قعود مجير الدين صاحب دمشق ، وصاحبه معين الدين عن نصرتهم – ابتغاء مرضاة الله ، وقيام بواجب عجز حكام دمشق عن القيام به ، كما أنه لا يحل لمسلم أعطاه الله القدرة على نصرة المسلمين وجهاد أعدائهم ، ولا ينصرهم .

وفى هذه الرسالة يرسى نور الدين معالم على طريق التحرير ، لعل حكام المسلمين يعون ما فيها ، حينما يذكر أن التمكين فى الأرض نعمة ، وكثرة المال ، وكثرة الرجال نعمة ، تستحق الشكر لله عز وجل ، وتوظيفها فى طاعة الله عز وجل ، أى لابد هنا من توظيفها فى الجهاد فى سبيل الله ، ولا يحل لمسلم أعطاه الله هذه النعم أن يقعد عن نصرة إخوانه فى الإسلام ومجاهدة الأعداء .

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٠٨ – ٣٠٩ ، الكامل فى التاريخ ، ج ٩ ، ص ٤٥ .

لهذا قرر نور الدين محمود أن يهب لنجدة إخوانه سكان دمشق ، لا أقول حكام دمشق ، إنما القاعدة العريضة من أهل دمشق ، الذين لجأوا إلى الحاكم المسلم نور الدين بعدما تبين لهم أن زعيمهم حاكم دمشق خائن ، ويتعاون مع الأعداء ضدهم ، حفاظا على كرسيه .

وذلك يعنى أيضا : أنه إذا اتضح خيانة أحد زعماء المسلمين لدينه وقضايا أمته ، وعجز عن حفظ ديار الإسلام والذب عنها ، فعلى القادرين من المسلمين الشرفاء الأتقياء عتابه ورده ، وإن لم يرتدع وجب عزله .

وفى نفس الوقت وجه نور الدين محمود رسالة إلى شعب دمشق المسلم يطلب منه :

الثبات والصبر والتضحية والمرابطة فى مواجهة الفرنج ، ويطلب منهم التعاون معه لإسقاط حاكم دمشق الظالم ، وعدم بذل الأموال[1] للفرنج ، أو التعامل معهم .

ثم توجه نور الدين محمود بعد ذلك لحصار دمشق ، وكان ذلك سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، لمدة عشرة أيام ، ولم يقم بمهاجمتها تحرجا من قتل المسلمين ، وقال : (لا حاجة إلى قتل المسلمين بأيدى بعضهم بعضا ، وأنا أرفههم ليكون بذل نفوسهم فى مجاهدة المشركين[2] . فهو يعلم جيدا أن الأمة إذا قتلت نفسها سهلت على العدو ، وإذا قدرت على حماية دمها بذلته رخيصا فى مجاهدة هذا العدو ... ومن ثم كانت عادة نور الدين كما يقول أبو شامة : (أنه لا يقصد ولاية أحد من المسلمين إلاّ ضرورة ، إما ليستعين على قتال الفرنج ، أو للخوف عليها منهم كما فعل بدمشق ومصر وغيرهما[3] . لقد كان الدم : « عنده عظيما » كما يقول ابن الأثير : « لما جبل عليه من الرأفة والرحمة والعدل »)[4] .

---

(١) (فقد كان مجير الدين حاكم دمشق يسمح لرسل الفرنج أن يدخلوا إلى دمشق ويأخذوا الإتاوات من الرعية) . الكامل فى التاريخ ، جـ ٩ ، ص ٤٥ - ٤٦ .

(٢) نور الدين محمود ، الرجل والتجربة ، ص ١٧ .

(٣) كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ص ٥٤٤ . ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣١٥ - ٣١٦ .

(٤) التاريخ الباهر ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ ؛ الروضتين ، جـ ١ ، ص ٥ ، ٢٩٥ .

ماذا فعل مجير الدين حاكم دمشق ؟

لقد أصر على أن يباشر الخيانة مرة أخرى ، (لقد أرسل إلى الفرنج يبذل لهم الأموال وتسليم قلعة بعلبك إليهم لينجدوه ، ويرحلوا نور الدين عنه ، فشرعوا فى جمع فارسهم وراجلهم ليرحلوا نور الدين عن البلد) .

هذا هو موقف حاكم دمشق .

أما الشعب فقد كان له شأن آخر :

لقد استجاب أهل دمشق المسلمين لنداء نور الدين محمود ، وقاموا بفتح أبواب دمشق (الباب الشرقى) رغما عن أنف زعيمهم ، أمام قوات الحاكم المسلم المجاهد نور الدين ، إعانة له على أداء مهمته ، وهى حشد جهود الأمة المسلمة كلها فى صف واحد لجهاد أعدائها . وحينما دخل نور الدين دمشق نادى فى البلد بالأمان والبشارة بالخير ، ثم وضع عنهم المكوس . العجيب أن ملوك الفرنج كتبوا إلى نور الدين يهنئونه بدمشق ، ويتقربون إليه ، ويخضعون له[1] .

وهنا نتساءل ماذا فعل نور الدين محمود بحاكم دمشق مجير الدين ؟... لقد عفا عنه ، وسيره إلى حمص ، ومنها انتقل إلى أرض العراق وأقام ببغداد إلى أن مات .



---

(١) وبهذا وفق الله نور الدين محمود إلى إعادة دمشق إلى الصف المسلم ، وكان سبب حرصه عليها كما يقول ابن الأثير : (أن الفرنج لما ملكوا مدينة عسقلان لم يكن لنور الدين طريق إلى إزعاجهم عنها لاعتراض دمشق بينه وبين عسقلان فلما ملك الفرنج عسقلان طمعوا فى دمشق) الكامل فى التاريخ ، جـ ٩ ، ص ٤٥ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢٣١ - ٢٣٢ .

الفصـــل الرابـــع

الجـــزء الأول

إعادة مصر إلى الصف المسلم

أمر ضرورى على طريق العودة إلى القدس

توجيه من القائد نور الدين محمـــود

أسد الدين شيركوه وصلاح الدين يوسف بن أيوب

يفتحون مصر عام ٥٦٢ هـ

– القائدان يخرجان منها تحت ضغط الفرنج والوزير الفاطمى شاور[١]

وفى عام ٥٦٤ هـ هجم الصليبيون على مصر يريدون الاستحواذ عليها تماما ، ويصور ذلك ابن كثير بقوله :

(وفيه طغت الفرنج بالديار المصرية ، وذلك أنهم جعلوا شاور شحنة « نائبا » لهم بها ، وتحكموا فى أموالها ومساكنها أفواجا أفواجا ، ولم « يبق » شىء من أن يستحوذ عليها ، **ويخرجوا منها أهلها من المسلمين** . وقد سكنها أكثر شجعانهم ، فلما سمع الفرنج بذلك جاءوا إليها من كل فج وناحية صحبة ملك عسقلان فى جحافل هائلة ، فأول ما أخذوا مدينة بلبيس ، وقتلوا من أهلها خلقا

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢٥٢ – ٢٥٣ .

وأسروا آخرين ، ونزلوا بها وتركوا بها أثقالهم ، وجعلوها موئلا ومعقلا لهم ، ثم ساروا فنزلوا على القاهرة ... فنهبوا البلد ، وذهب للناس أموال كثيرة جدا) وأمر الوزير شاور بحرق مصر ، (وبقيت النار تعمل فى مصر أربعة وخمسين يوما)[1] .

وذلك يعنى :

أن الصليبيين لم يكتفوا بصداقة ما يسمى بالخليفة العاضد العبيدى لهم ، وإنما رأوا أنه لابد لهم من الاستحواذ على مصر تماما لعدة أسباب :

١ - ضمان عدم إقلاق تواجدهم ببلاد الشام ، لأن مصر بإمكاناتها المادية وسكانها المسلمين كانت الرافد الذى يمكن أن يمد حركة الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين فى بلاد الشام بما تحتاجه .

٢ - أن مصر تعتبر الجبهة الجنوبية لبلاد الشام ، وهناك احتمال أنهم قد فطنوا بعد وصول أسد الدين شيركوه وصلاح الدين لمصر ، أن نور الدين زنكى يرغب فى إعادة مصر إلى الصف المسلم ، وتوحيدها مع بلاد الشام . للضغط على الصليبيين ، وإخراجهم من هناك ولذلك قرروا أن يسبقوا ويأخذوا مصر .

وهنا نرى أن حاكم مصر العاضد العبيدى (أرسل يستغيث بنور الدين محمود ، وبعث إليه بشعور نسائه يقول : أدركنى واستنقذ نسائى من أيدى الفرنج ، والتزم له بثلث خراج مصر ، على أن يكون أسد الدين مقيما بها عندهم)[2] .

وهنا وجد نور الدين الفرصة سانحة لإعادة مصر إلى الصف الإسلامى كخطوة أساسية ولازمة نحو تحرير بلاد الشام ، فشرع فى تجهيز الجيوش إلى مصر .

وهنا نلمح الخيانة تطل برأسها من بين جوانح وزير فى حكومة العاضد وهو الوزير (شاور) الذى أرسل رسالة إلى ملك الفرنج يقول : (قد عرفت محبتى

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٥٥ .

(٢) البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢٥٥ .

ومودتى لكم ، ولكن العاضد والمسلمين لا يوافقون على تسليم البلد ، وصالحهم ليرجعوا عن البلد « مصر » بألف ألف دينار ذهب)[1] .

ثم شرع الوزير شاور فى مطالبة الناس بالذهب الذى صالح به الفرنج وتحصيله ، وضيق على الناس ، مع ما نالهم من الضيق والحريق والخوف ، وكان هدف شاور من وراء هذا الأمر أن يمنع جيوش المسلمين بقيادة أسد الدين شيركوه من دخول مصر وهكذا يبذل حكام المسلمين أموال المسلمين لأعداء الإسلام بدلا من إنفاقها على الجهاد فى سبيل الله وأوجه الخير الأخرى ، وذلك حفاظا على مناصبهم بحجة أن السبب الذى من أجله استقدموا قد انتهى .

(واستدعى نور الدين الأمير أسد الدين شيركوه من حمص إلى حلب ، فساق إليه هذه المسافة وقطعها فى يوم واحد ، فإنه قام بعد أن صلى الصبح[2] ، فسر بذلك نور الدين ، وأضاف إليه من الأمراء والأعيان ، كل منهم يبتغى بمسيره رضى الله والجهاد فى سبيله)[3] . لقد وقر فى قلوبهم قول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم؟ تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ . وكان من جملة الأمراء : ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب[4] .

(ولما وصلت الجيوش النورية إلى الديار المصرية وجدوا الفرنج قد انشمروا عن القاهرة راجعين إلى قواعدهم) .

(وفرح المسلمون بقدومه ، وأجريت عليهم الجرايات ، وحملت إليهم التحف والكرامات) .

وقتل الخائن شاور بأمر الحاكم العاضد ، وأسندت الوزارة إلى أسد الدين شيركوه ، ولكنه توفى بعد ولايته بشهرين وخمسة أيام ، فأسند الأمر إلى ابن أخيه

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢٥٥ .
(٢) وهكذا خرج المجاهد بعد صلاة الصبح ، ولم يخرج بعد سهرة حمراء أو خضراء ..
(٣) إنه ليس الخروج من أجل الدنيا ؛ التاريخ الباهر ، ص ١٣٢ .
(٤) نفس المصدر ، ص ٢٥٥ ، الكامل فى التاريخ ، جـ ٩ ، ص ٨٤ - ٨٥ .

صلاح الدين يوسف ، الذى لقبه العاضد بالملك الناصر ، وكان ذلك يوم الاثنين الخامس والعشرين من جمادى الآخرة من سنة أربع وستين وخمسمائة[1] .

(وأقام صلاح الدين بمصر بصفته نائب للملك نور الدين ، وقد التفت عليه القلوب ، وخضعت له النفوس) .

وكانت هذه هى الخطوة الأولى لإعادة مصر إلى الصف المسلم .

ولكن هل الخونة المدينون بمناصبهم لأعداء الإسلام يسلمون قيادتهم للمسلمين الصادقين ؟

هذا ما ستقرأ عنه فى الجزء الثانى .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٥٧ ؛ التاريخ الباهر ، ص ١٤١ .

الجـــزء الثانـــى

مؤامرة شيعية - يهودية للقضاء على قوات نور الدين محمود ، وصلاح الدين يوسف

- مؤتمن من يسمى الخليفة الحاكم العاضد[1] ومقدم عساكر القصر يتفق وجماعة على مكاتبة الفرنج واستدعائهم إلى البلاد ، والتّقوِّى بهم على صلاح الدين ومن معه .

- المتآمرون يسيرون الكتاب مع إنسان يثقون به .

- القبض على حامل الكتاب .

- الرسالة تلقى الضوء على خطة المتآمرين[2] :

(أن يتحرك الفرنج إلى الديار المصرية ، فإذا وصلوا خرج صلاح الدين بالعساكر إلى قتالهم ، فيثور مؤتمن الخلافة بمن معه من المصريين على متخلفيهم ، فيقتلونهم ، ثم يخرجون بأجمعهم يتبعون صلاح الدين ، فيأتونه من وراء ظهره والفرنج من بين يديه ، فلا يبقى لهم باقية) .

والعجيب أن كاتب الكتاب (يهودى) ..

وكان فضل الله عظيما ، إذ أمكن القضاء على هذه المؤامرة فى مهدها ، بفضل الله ثم بفضل يقظة صلاح الدين وجنده[3] .

---

(١) هذا هو موقف المسئول الأول فى قصر العاضد الذى ادعى أنه من سلالة تنتمى إلى فاطمة بنت محمد ﷺ . إن رسول الله يبرأ من هذا الحاكم وأمثاله فى الدنيا والآخرة .

(٢) الكامل فى التاريخ ، جـ ٩ ، ص ١٠٣ ، البداية والنهاية جـ ١٢ ، ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .

(٣) وهذا فيه تنبيه إلى ضرورة يقظة الصف المسلم على ما يدبره الأعداء ، مع أخذ الحيطة والحذر ﴿ يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم ﴾ ..

مدلول هذه المؤامرة :

فشل المؤامرة الداخلية وتحرك قوات الصليبيين لغزو مصر :

كان من الواجب على حاكم مصر العبيدى (الشيعى) الذى يدعى انتسابه إلى الفاطميين ، أن يحمد الله عز وجل ، أن منّ عليه بإخوه فى الإسلام حفظوا البلد من هجمات الأعداء ، وحفظوا عليه أعراض النساء ..

وكان من الواجب أيضا أن يحشد جهوده وإمكانياته المادية – خاصة وأن مصر كانت على جانب كبير من الثراء – ضد أعداء الإسلام . ولكن الذى حدث شيءٌ آخر ، وهذا يثبت لنا تواطؤ بين الشيعة الذين كانوا يحكمون مصر ، والصليبيين ، واليهود ..

إن هذه الحادثة تلقى الضوء على كثير من المسائل التى يجب أن يضعها المخلصون من أبناء المسلمين وهم يسعون لتحرير الأرض الإسلامية من مغتصبيها فى كل مكان ، لأنها تلقى الضوء على العقبات التى يمكن أن يصادفوها فى الطريق .

إن هنالك طائفة من أصحاب المناصب العليا فى بلاد المسلمين ، حريصون على مناصبهم ولو كلفهم ذلك أن يبيعوا الأمة التى ينعمون بخيراتها إلى أعدائها ، فها هو مؤتمن الحاكم ، ومقدم عساكر القصر يحيك خيوط المؤامرة .

إن هذه الطائفة تمقت الإسلام وأهله ، وتعطى ولاءها وحبها للصليبيين وأعداء الإسلام واليهود ؛ فمؤتمن القصر ، يراسل الفرنج ، ويستدعيهم إلى مصر ، وكاتب الرسالة يهودى ، والمطلوب هو القضاء على صلاح الدين وأتباعه .

ويبدو أن حاكم مصر العبيدى كان فى ذلك الوقت على علم بهذا الأمر ، لأنه ليس من المتصور أن يجرى ذلك فى قصره وبدون علمه ، يؤكد ذلك أن قوات صلاح الدين بن أيوب تعرضت وهى تصفى أطراف المؤامرة ، لهجمات بالحجارة والسهام صادرة من قصر الحاكم ، بل إن العاضد كان يرقب المعركة من القصر[1] . وكان من الواجب عليه أن يكون إيجابيا ، بأن يقف إلى جوار جند

---

(١) البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٥٨ .

المسلمين الذين منعوا عرضه من أن ينتهك وكرامته من أن تداس .

وفى أعقاب هذه الأحداث التى قدر فيها الله سبحانه وتعالى أن ينجو صلاح الدين وجنده من عاقبتها ، بدأت تتحرك الجبهة الصليبية فى بلاد الشام ، فاتصلت بصليبيي الأندلس وصقلية ، يستعدونهم ، من أجل ما تجدد من ملك صلاح الدين لمصر ، وأنهم خائفون على بيت المقدس وقواعد الصليبيين ، وواعدوهم على الالتقاء عند دمياط لاغتصاب مصر .

- فهل فشل المؤامرة السالفة هو الذى أدى إلى تحرك القوات الصليبية من بلاد الشام ومن بلاد الأندلس اتجاه مصر ؟؟

- هنالك تواطؤ غير مرئى بين الحكام الذين يدعون انتسابهم إلى بنت رسول الله ﷺ والصليبيين !!

إن سياق الأحداث يؤكد أن الصليبيين قد أدركوا أن معنى عودة مصر إلى الصف الإسلامى ، وخضوعها هى وبلاد الشام المحررة لقيادة إسلامية واحدة ، بالإضافة إلى إمكانيات مصر البشرية والمادية ، يمكن أن تعجل بإنهاء الغصب الصليبى ، لبلاد الشام والشمال الأفريقى . ومن هنا كان تحالف الصليبيين لغزو مصر عام ٥٦٥ هـ .

- صلاح الدين يواجه الغزو الصليبى لمصر عام ٥٦٥ هـ ويجاهده .

- القائد عيناه مفتوحتان على أى مؤامرة داخلية ضد الإسلام .

﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا﴾ لقد أرسل صلاح الدين ، رسالة ، إلى قائده نور الدين محمود ، يستنجده عليهم ، ويطلب منه أن يرسل إليه بإمداد من الجيوش ، فإنه إن خرج من مصر ، خلفه أهلها بسوء[1] ، وإن قعد عن الفرنج أخذوا دمياط . وقد حاصر الفرنج مدينة دمياط فى بلاد مصر خمسين يوما ، بحيث ضيقوا على أهلها ، وقتلوا أمما كثيرة ..

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢٦٠ ، وهذا يبين لنا كيف نجح الحكام العبيديون (الذين يسمون بالفاطميين) فى عزل مصر وجدانيا وشعوريا عن حركة الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين ، بل كان منهم سند للأعداء ضد الحركة الجهادية وقادتها .

ماذا فعل القائد العام نور الدين محمود رحمه الله ؟

لقد وجه جيوشا ، يتبع بعضها بعضا ، إلى الجبهة الجنوبية (إلى مصر) ،. ثم قام هو بقيادة الجبهة الشمالية[1] ، وهاجم قواعد الصليبيين ببلاد الشام ، فجاس خلال ديارهم ، وغنم من أموالهم ، وقتل وسبى شيئا كثيرا .

وهزم الفرنج وأخرجوا من مصر بفضل الله ، ثم بفضل الرجال المجاهدين . ومن خلال هذه المعركة يبرز أهمية ودور مصر فى حركة الجهاد الإسلامى ضد أعداء الإسلام اليوم وغدا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها[2] .

وهنا يبرز شيء ، له أهمية كبيرة أيضا ، وهو إحساس القائد بخطورة الموقف وحرصه على ديار الإسلام ، فيحشد له كل ما يستطيع حشده ، ولكن يدرك فى البداية والنهاية أن النصر بيد الله سبحانه وتعالى ، ولابد من الخشوع والتذلل والعودة إليه . يقول ابن كثير :

(قرأ عليه (أى على نور الدين محمود) بعض طلبة الحديث جزءا فى ذلك ، فيه حديث مسلسل بالتبسم ، فطلب منه أن يتبسم ليصل التسلسل ، فامتنع من ذلك وقال : إنّى لأستحى من الله أن يرانى مبتسما والمسلمون يحاصرهم الفرنج بثغر دمياط)[3] .

ويبرز أيضا أمر هام ، هو توجيه نور الدين محمود ، لنجم الدين أيوب ، والد صلاح الدين ، وهو متوجه إلى مصر : (أن يخطب بمصر للخليفة المستنجد بالله العباسى)[4] .

وهذا دليل على إحساس نور الدين بأهمية الخلافة ، ولا عجب فى ذلك

---

(١) وكان على إحداها نجم الدين أيوب والد صلاح الدين ، وهكذا تثبت لنا الأحداث أن المؤمنين كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ، وأن المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا .

(٢) وهذا يعكس لنا السبب الذى من أجله يحرص اليهود والصليبيون والشيوعيون على عزل مصر عن العالم الإسلامى .

(٣) البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢٦١ .

(٤) البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢٦١ ، الكامل فى التاريخ ، جـ ٩ ، ص ١١١ .

فهى السياجّ الحامى للأمة الإسلامية ضد أعدائها ، وهى عنوان وحدتها وفى هذا دليل أيضا على أن نور الدين لم يكن يطمع فى شىء لنفسه ، لقد خرج من حظ نفسه ، وإلا فالخليفة كان ضعيفا ، ولم يكن يملك من أمر الناس شيئا ، وكان بإمكان نور الدين أن يعلن نفسه ملكا على مصر أو خليفة على العالم الإسلامى ، وإنَّما لم يكن لنور الدين أرب فى هذه الدنيا ، وكذلك كان الأمر بالنسبة لصلاح الدين ، لم يكن له أرب فى شىء ، وإلا لو كان يطلب الزعامة لاستقل بمصر ، ولدعا لنفسه ، ولكنه جندى يسمع ويطيع لقائده المجاهد المسلم نور الدين .

الجـــزء الثالـــث

أولا : خطوة أخرى على طريق التحرير :

تولية قضاء مصر لعلماء السنة :

وفى سنة ست وستين وخمسمائة عزل صلاح الدين قضاة مصر لأنهم كانوا شيعة ، فى بلد شعبه من أهل السنة ، وولى قضاء القضاة بها لصدر الدين عبد الملك بن درباس الماردانى الشافعى ؛ فاستناب فى سائر المعاملات قضاة الشافعية ، وبنى مدرسة للشافعية وأخرى للمالكية[١] . كما قطع صلاح الدين الآذان بحى على خير العمل من ديار مصر كلها ، وشرع فى تمهيد الخطبة لبنى العباس[٢] على المنابر .

ثانيا : مصر تنتقل من الدفاع إلى الهجوم :

– جبهة بلاد الشام الجنوبية فى مصر تهاجم قواعد الصليبيين :

(وفى سنة ست وخمسين وستمائة هاجم صلاح الدين قواعد الفرنج بنواحى عسقلان وغزة وضرب قلعة كبيرة كانت لهم على إيلة)[٣] .

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢٦٣ .

(٢) وكانت الخطبة قد قطعت لبنى العباس من ديار مصر سنة تسع وخمسين وثلاثمائة حين تغلب عليها العبيديون .

(٣) ويجب على القارىء أن لا تأخذه الحمية للعاضد ، لأنه كما يقول ابن كثير : (كان شيعيا خبيثا ، لو أمكنه قتل كل من قدر عليه من أهل السنة) ولذلك فقد اعتبره ابن كثير (آخر خلفاء العبيديين) . البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢٦٤ ، وقد تكررت هجمات الصليبيين على مصر فى عهد صلاح الدين لإخراجه منها . الكامل فى التاريخ ، جـ ٩ ، ص ١٢٩ .

إصلاح الأحوال الداخلية ضرورة يستلزمها حشد الجهود لمواجهة الأعداء :

إن اهتمام صلاح الدين الأيوبى بأحوال الشعب الداخلية لم يكن أقل اهتماما بأحوال الجبهة الخارجية مع الأعداء ؛ لأنه أدرك أنه كلما كانت الجبهة الداخلية سليمة متماسكة كانت جبهة القتال مع العدو قوية . من هنا نرى أن صلاح الدين الأيوبى قد أسقط عن أهل مصر الضرائب والمكوس[1] .

مصر الإسلامية لن تكون آمنة إلا إذا تحررت بلاد أفريقية من تسلط أعداء الإسلام عليها :

- **توجيه سرية إلى بلاد أفريقية :**

لقد أدرك صلاح الدين خطورة الجبهة الواقعة إلى غرب مصر ، ولذلك نراه يبعث سرية صحبة قراقوش مملوك تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين يوسف إلى بلاد أفريقية ، فملكوا طائفة كبيرة منها ، من ذلك مدينة طرابلس الغرب وعدة مدن معها ، وكان ذلك عام ثمانية وستين وخمسمائة .

« حفظ مصر أهم عندنا من غيرها » :

كلمة خالدة جعلها الله فى ميزان حسنات نور الدين محمود بن زنكى .

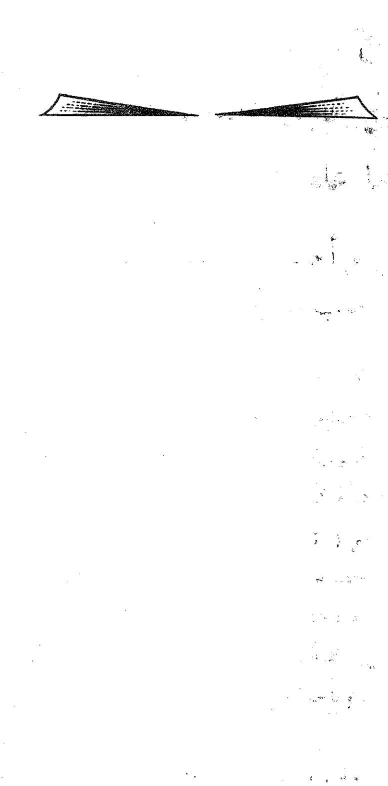
فى سنة ثمان وستين وخمسمائة ، اتفق نور الدين أن يخرج(صلاح الدين من مصر باتجاه الكرك) . ويسير نور الدين إليها ، فأيهما يسبق صاحبه ، يقيم ، إلى أن يصل الآخر إليه ، وتواعدا على يوم معلوم يكون وصولهما فيه . فسار صلاح الدين عن مصر لأنه طريق أبعد وأشق ، ووصل إلى الكرك (وكان فى يد الصليبيين) وحصره . وأما نور الدين فإنه لما وصل إليه كتاب صلاح الدين برحيله من مصر فرق الأموال ، وحمل الأزواد وسار إلى الكرك ، فوصل إلى الرقيم وبينه وبين الكرك مرحلتان .

ولسبب ما ، رجع صلاح الدين إلى مصر وأرسل رسالة إلى نور الدين مع الفقيه عيسى ، يعتذر عن رحيله (بأنه كان قد استخلف أباه نجم الدين أيوب على

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٦٨ ، الكامل فى التاريخ ، ج ٩ ، ص ١١٩ .

ديار مصر ، وأنه مريض شديد المرض ، ويخاف أن يحدث حادث الموت ، فتخرج البلاد عن أيديهم) . فجاء الرسول إلى نور الدين وأعلمه ذلك ، فعظم عليه ، ولكنه قال : « حفظ مصر أهم عندنا من غيرها »[1] .



---

(١) الكامل فى التاريخ ، جـ ٩ ، ص ١٢١ . هنا لفتة بسيطة وهى أن الكامل قد ذكر أن سبب عودة صلاح الدين هو خوفه من نور الدين ، وفى تصورنا هذا غير صحيح ، والاحتمال الكبير هو أن صلاح الدين بعد أن خرج من مصر باتجاه الكرك ، قد تلقى رسالة أن أباه يحتضر ، فعاد إلى مصر ولو كان صلاح الدين يخاف ، ما سمح لنفسه أن يواعد نور الدين ويخبره بذلك ويصل إلى الموقع المتفق عليه ، ثم يعود . يؤيد ذلك :

(أ) أن صلاح الدين قد عاد فوجد أباه قد توفى فعلا .

(ب) وبعد وصوله تم اكتشاف مؤامرة أخرى لإعادة حكم الشيعة العبيدية (الخلفاء الذين تسموا بالفاطميين) إلى مصر (انظر : البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢٧٠ ، ٢٧٥) .

الجـــزء الرابـــع

– خطوة أخرى على الطريق يتخذها القائد المسلم صلاح الدين :

– إعادة جنوب الجزيرة العربية إلى الصف المسلم :

بلغ صلاح الدين الأيوبى أن اليمن قد تغلب عليها رجل يقال له عبد النبى ابن مهدى ، تغلب عليها ودعا إلى نفسه وتسمى بالإمام وزعم أنه سيملك الدنيا كلها ، (وكان هذا الرجل سيىء السريرة والسيرة)[1] .

وقد اعتبر صلاح الدين ذلك خروجا على الخليفة ، وخروجا على الصف المسلم ، ولذلك وجب قتاله وقتله إذا قدر عليه .

فوجه صلاح الدين سرية بقيادة أخيه الأكبر شمس الدولة توران شاه ، الذى ورد مكة فاعتمر بها وسار منها إلى زبيد ، فامتلكها ، كما سار إلى عدن وامتلكها ، ومنع الجيش من نهبها وقال : « ما جئنا لنخرب البلاد ، وإنما جئنا لعمارتها وملكها » ؛ ثم سار إلى بقية الحصون والمخالف والمعاقل فملكها ، واستوثق له ملك اليمن بحذافيره وخطب للخليفة العباسى المستضىء[2] .

(وقتل الدعى المسمى بعبد النبى ، وصفت اليمن من أكدارها ، وعادت إلى ما سبق من مضمارها) .

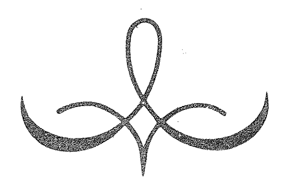
وكتب شمس الدولة إلى أخيه الملك الناصر صلاح الدين يخبره ، بما فتح الله

---

(١) الكامل فى التاريخ ، جـ ٩ ، ص ١٢٢ ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢٧٣ – ٢٧٤ .

(٢) ليت أبناء المسلمين الذين يقتل بعضهم بعضا يتلون هذه الأخبار التى تعكس لنا ورعا وتقوى وخوفا من الله عز وجل ، علهم يعتبرون ويتأدبون ، ففيها حرص القادة المسلمين على الخلافة ، وعلى وحدة الجبهة الإسلامية .

عليه[1] ، وأحسن إليه . فكتب الملك صلاح الدين بذلك إلى نور الدين ، فأرسل نور الدين بذلك إلى الخليفة[2] يبشره بفتح اليمن والخطبة بها له .



---

(١) لأن الفتح من الله .. هذا هو الأدب يا أبناء المسلمين !!

(٢) هذه هي الجندية يا أبناء المسلمين ؟؟ أنهم خرجوا من حظ أنفسهم ، إنهم لا يريدون زعامات !! إنهم أتقى لله من ذلك ؟ إنَّهم يريدون الآخرة ، فهل نتعظ ؟ فهل نتعلم ؟ فهل نتأدب ؟

الجـــزء الخامـــس

تحذير :

– إن على الزعماء المسلمين الذين يأخذون على عاتقهم قيادة الأمة المسلمة على طريق التحرير ، أن يحذروا مؤامرات الأعداء فى الداخل : ﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ .

لم يمض خمس سنوات على المؤامرة التى دبرت فى مصر وكانت تستهدف الأمة الإسلامية ممثلة فى القائد المرتجى صلاح الدين وجند نور الدين ، حتى تم الكشف بفضل الله عن غيرها ، وملخصها :

رؤوس ما يسمى بالحكم الفاطمى اتفقوا على الانقلاب على نظام صلاح الدين الأيوبى لرد ما يسمى بالحكم الفاطمى (الشيعى العبيدى) .

– المتآمرون فى الداخل ، يكاتبون الفرنج أعداء الإسلام من خارج مصر ، يستدعونهم إليهم .

وقبض على المتآمرين ، (واستفتى صلاح الدين الفقهاء فى أمرهم فأفتوه بقتلهم) ، (ثم عند ذلك أمر بقتل رؤوسهم دون أتباعهم وغلمانهم ، وأمر بنفى من بقى من جيش العبيديين إلى أقصى البلاد ، وأفرد ذرية العاضد وأهل بيته فى دار ، فلا يصل إليهم إصلاح ولا إفساد ، وأجرى عليهم ما يتعلق بهم من الأرزاق والثياب)[1] .

---

(١) الكامل فى التاريخ ، جـ ٩ ، ص ١٢٣ ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢٥٧ .



الفصـــل الخامـــس
الجـــزء الأول

- وفاة نور الدين محمود بن زنكى .
- الأعداء يحاولون أن ينتهزوا فرصة موته .
- صلاح الدين الأيوبى يحمل الراية من بعده .

وفى يوم الأربعاء حادى عشر شوال ، سنة تسع وستين وخمسمائة توفى نور الدين محمود بن زنكى بن آقسنقر ، صاحب الشام وديار الجزيرة ومصر واليمن والحجاز (وكان قد خطب له بالحرمين الشريفين) ، وكان مولده سنة إحدى عشرة وخمسمائة[1] .

يقول المؤرخون : (فلما مات نور الدين طمعت الأعداء من كل جانب فى المسلمين ، وعزم الفرنج على قصد دمشق وانتزاعها من أيدى المسلمين ، فبرز إليهم ابن مقدم الأتابك فواقعهم عند بانياس ، فضعف عن مقاومتهم ، فهادنهم مدة ، ودفع إليهم أموالا جزيلة عجلها لهم ، ولولا خوفهم بقدوم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب لما هادنوه . ولما بلغ ذلك صلاح الدين كتب إلى الأمراء وخاصة ابن مقدم الأتابك يلومهم على ما صنعوا من المهادنة ودفع الأموال إلى الفرنج ، وهم أقل وأذل ، فردوا إليه كتابا فيه غلظة ، وكلاما فيه بشاعة)[2] .

---

(١) التاريخ الباهر ، ص ١٦١ .

(٢) البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٨٥ .

(وقد اقترنت وفاة نور الدين أيضا بظهور الشرور ، وكثرة الخمور ، وانتشار الفواحش) .

واقترنت بقيام الفرنج بمحاولة غزو مصر سنة سبعين وخمسمائة ، كما اقترنت أيضا بقيام أنصار العبيديين الشيعة (ممن يسمون بالفاطميين) بتدبير مؤامرة لمحاولة القضاء على صلاح الدين وجند المسلمين ، وإعادة حكم الشيعة إلى مصر[1] .

وهنا تبدو عدة أمور على جانب كبير من الأهمية :

(أ) ضرورة تربية صف مسلم يتحمل التبعات الملقاة على عاتقه ، إذا ما قتل قائد المسيرة الإسلامية الجهادية ؛ فعماد الدين أعد ابنيه سيف الدين غازى ونور الدين محمود ؛ ونور الدين محمود أعد أسد الدين شيركوه وصلاح الدين .

(ب) إنّ أعداء الأمة الإسلامية ينتهزون المصائب التى تحل بالأمة للقيام بتنفيذ مخططاتهم ، وهذا ما فعله الفرنج بعد موت نور الدين .

(ج) إن الأعداء حريصون على زرع أعوان لهم داخل بلاد المسلمين ، مهمتهم تدبير المؤامرات وتقويض الجبهة الداخلية . وهنا تبدو أهمية اليقظة على عناصر الخيانة داخل بلاد المسلمين .

(د) إن أعداء الإسلام حريصون على أن تشيع الفاحشة داخل المجتمع الإسلامى لتدميره فلا يقوى على الجهاد .

وهنا نقف قليلا لنتأمل كيف وفق الله سبحانه وتعالى الملك الناصر صلاح الدين فى القضاء على هذه المؤامرات الخارجية والداخلية بعد وفاة القائد المجاهد نور الدين محمود :

لقد كان صلاح الدين رجل الساعة بلا نزاع ، فالمصيبة بفقد نور الدين كانت كبيرة ، ولكن صلاح الدين تعالى فوق أحزانه وأسرع برفع الراية ومواصلة مسيرة الجهاد على طريق التحرير .

---

(١) البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٨٧ - ٢٨٨ .

الدليل على ذلك :

أولا : إفشاله الحملة الصليبية التى تحركت من صقلية لغزو مصر عن طريق الإسكندرية سنة سبعين وخمسمائة هجرية . يقول ابن كثير : (فى أسطول لم يسمع بمثله)[1] .

ثانيا : إفشال مؤامرة الشيعة العبيديين (الذين يسمون بالفاطميين) جنوب مصر . هذه المؤامرة كان يقوم عليها أحد مقدمى الديار المصرية على عهد **الدولة العبيدية** ، وحاول خلالها أن يجمع الناس حوله بحجة أنه سيعيد ما تسمى **بالدولة الفاطمية** لحكم مصر ، ويقضى على صلاح الدين وجنده . وقد جرد صلاح الدين لهذه المؤامرة حملة بقيادة أخيه العادل أبى بكر الكردى الذى أخمد الفتنة وقتل قائدها[2] .

ثالثا : جمع أهل الشام على قلب رجل واحد :

(أ) لما اطمأن صلاح الدين إلى متانة الجبهة الداخلية ، أعد العدة للتوجه إلى بلاد الشام ، وكان هدفه كما يقول المؤرخون : (جمع شملها ، والإحسان إلى أهلها ، وأمن سهلها وجبلها ، ونصرة الإسلام ودفع الطغاة ، وإظهار القرآن ، وإخفاء سائر الأديان ، وتكسير الصلبان فى رضى الرحمن وإرغام الشيطان)[3] .

واستناب صلاح الدين على مصر أخاه أبا بكر ، وسافر باتجاه دمشق فدخلها فى يوم الاثنين سلخ ربيع الأول سنة سبعين وخمسمائة دون إراقة دماء .

وكان وصول صلاح الدين إلى دمشق وصول خير وبركة ، إذ أنه عامل الناس بالإحسان وأمر بإبطال ما أحدث بعد نور الدين من المكوس والضرائب ، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر .

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢٨٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٨٩ .

(٣) التاريخ الباهر ، ص ١٧٦ .

واستناب صلاح الدين أخاه طغتكين بن أيوب الملقب بسيف الإسلام على دمشق[1] .

(ب) محاولة دخول حلب لما فيها من (التخبيط والتخليط) .

وواجه الملك الناصر صلاح الدين فى حلب مؤامرات شتى بعد موت نور الدين محمود منها :

١ - الأمراء المقدمون عند نور الدين قبل وفاته يطلبون من أهل حلب قتال الملك الناصر صلاح الدين .

٢ - أهالى حلب من الشيعة الرافضة يشترطون لقتال صلاح الدين :

- إعادة الآذان بحى على خير العمل .
- وأن يكون لهم فى الجامع الجانب الشرقى .
- أن يذكر أسماء الأئمة الاثنى عشر بين يدى الجنائز .
- وأن يكبروا على الجنائز خمسا ، إلى غير ذلك من الشروط فأجيبوا إلى ذلك .

ولكن أنَّى لهذه الطغمة الفاسدة أن تقف فى وجه القائد صلاح الدين ، وعجز أهل البلد عن مقاومته ، **فلجأوا إلى المؤامرة** :

- فاستأجروا بعض الأفراد لقتله ، فلم يظفروا منه بشيء ، بل قتلوا بعض الأمراء ، ثم ظهر عليهم ، فَقُتِلُوا ، عن آخرهم[2] .

- راسلوا عند ذلك القومص صاحب طرابلس الفرنجى ووعدوه بأموال جزيلة إن هو رحَّل عنهم الناصر وهكذا نرى أن الشيعة من أبناء الشام تتعاون مع الصليبيين للقضاء على المسلمين من أهل السنة[3] .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٨٩ .

(٢) البرق الشامى ، ص ١٠٠ .

(٣) البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٨٩ .

وفشل التآمر بفضل الله ، واستطاع صلاح الدين أن يعيد حمص وحلب وحماة إلى الصف المسلم ، وأن يخمد الفتنة التى كادت تعصف بوحدة البلاد الإسلامية بعد وفاة نور الدين محمود .

ولكن هل انتهت بذلك المؤامرات ؟

لم تنته فلقد استمرت المؤامرات الداخلية والخارجية ، أطرافها من يدّعون أنهم شيعة[1] بيت النبى محمد – ﷺ – والأوربيون (الفرنج) ، وأبناء المسلمين الذين باعوا أنفسهم للشيطان .

وفى عام ٥٧١ هـ وقعت أمور هامة على طريق التحرير ، إذ أن صلاح الدين استناب أخاه نور الدولة الذى كان على اليمن ، على دمشق ، وفتحت بلاد كثيرة بالمغرب على يد بهاء الدين قراقوش .

بمثل هؤلاء يقاد المسلمون فى طريقهم إلى القدس :

– أوقات يخلوا فيها القائد إلى ربه يطلب منه العون والتثبيت ، وأوقات ينظر فيها أحوال العباد والبلاد ، رغم الانشغال بجهاد الأعداء :

يقول الله عز وجل : ﴿ كتب الله لَأَغْلِبَنَّ أنا ورسلى ، إنَّ الله لقوى عزيز ﴾ .. ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَاد ﴾ .. ﴿ إن تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكم وَيُثَبِّتْ أقدامكم ﴾ .. ﴿ وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركُم من بعده ؟ ﴾ ..

لقد أدرك صلاح الدين أن النصر من عند الله وأنه لا يتنزل إلا على عباده المخلصين ، ومن ثم كان له أوقات يخلو فيها إلى ربه وخالقه ، يطلب منه المغفرة ، ويطلب منه العون والتثبيت .

نلمح ذلك فى سلوك الملك الناصر صلاح الدين حينما رجع إلى مصر عام ٥٧٢ هـ :

---

(١) البرق الشامى ، ص ٢١٠ .

لقد ركب إلى الإسكندرية فأسمع ولديه : على والعزيز عثمان على الحافظ السلفى ، وتردد بهما إليه ثلاثة أيام : أيام الخميس والجمعة والسبت رابع رمضان ، وعزم الناصر على إتمام القيام بها .

كما أن القائد قد أدرك أيضا ، أن الإعداد لجنة عرضها السموات والأرض لا يقف عند حد جهاد الأعداء ، ولكن لابد وأن يقترن به إصلاح أحوال العباد ، وتربيتها على الإسلام ، والنظر فى مظالمها ومطالبها ، وتحصين الثغور نلمح ذلك حينما أكمل عمارة السور حول مدينة الإسكندرية ، وأمر بتجديد الأسطول وإصلاح مراكبه وسفنه وشحنه بالمقاتلة ، وأمرهم بغزو جزائر البحر ، وأقطعهم الإقطاعات الجزيلة ، وأرصد للأسطول من بيت المال ما يكفيه بجميع شئونه ، ثم عاد إلى القاهرة فى أثناء رمضان فأكمل صومه .

وفيها أمر ببناء مدرسة للشافعية ، وفيها أمر ببناء المارستان بالقاهرة ووقف عليه وقوفا كثيرة[1] .

وفى عام ٥٧٣ هـ أمر الملك الناصر صلاح الدين ببناء قلعة الجبل ، وإحاطة السور على القاهرة ومصر .

ورغم هذا فقد اشتهر عن صلاح الدين أنه كان يواظب على سماع الحديث بالقاهرة[2] . ويقال : إنه رحل إلى الإسكندرية عام ٥٧٧ هـ ليسمع موطأ مالك على الشيخ أبى طاهر بن عوف ، عن الطرطوشى .

صلاح الدين يواصل مجاهدته أعداء الإسلام :

واصل الملك الناصر صلاح الدين جهاده ضد الفرنج وأعوانهم من أبناء المسلمين .

ففى عام ٥٧٧ هـ ركب صلاح الدين فى عساكره من الديار المصرية ، فسار حتى أتى الفرات فعبرها واستولى على بلاد الجزيرة بكمالها ، ثم جاء إلى حلب فتسلمها .

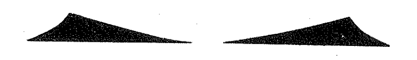
---

(١) البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢٩٦ .

(٢) البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣٠٨ .

وحينما قصد الصليبيون تيماء من أرض الحجاز ، ليتوصلوا منها إلى المدينة النبوية ، وكان قد تولى كبر هذه المسألة صاحب الكرك ، جهز له صلاح الدين سرية من دمشق تكون حاجزة بينه وبين الحجاز ، فصده ذلك عن قصده .

وفى نفس الوقت قام الصليبيون بقطع السبل على المسلمين برا وبحرا وسرا وجهرا فأمكنه الله منهم[1] .



(1) البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣٠٨ – ٣٠٩ .

الجـــزء الثانـــى

– حركة جهادية عارمة اعتبارا من سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، وتأمين الجبهة الإسلامية فى مصر والعراق وبلاد اليمن والحجاز وبلاد المغرب ..

– بدء مهاجمة الصليبيين فى الشمال انطلاقا من دمشق .

ووصل الملك الناصر إلى دمشق عام ٥٧٨ هـ ، وخرج منها واقتتل مع الفرنج ، وكانت النصرة للمسلمين[١] .

(وقد استحوذ الملك الناصر فى نفس الوقت على بلاد الجزيرة والرها والرقة ونصيبين ، وخضعت له الملوك ، ثم عاد إلى حلب[٢] فتسلمها ، فاستوثقت له الممالك شرقا وغربا ، وتمكن حينئذ من قتال الفرنج .

الصليبيون يحاولون قطع الطريق على الحجاج :

لما عجز أمير الكرك الصليبى عن إيصال الأذى إلى المسلمين فى البر ، عمل مراكب فى بحر القلزم ليقطعوا الطريق على الحجاج والتجار ، فوصلت أذيتهم إلى عيذاب (وهو ميناء على البحر الأحمر) ، وخاف أهل المدينة النبوية من شرهم .

ماذا كان موقف الملك الناصر ؟

أمر الملك العادل ، الأمير حسام الدين لؤلؤ صاحب الأسطول أن يعمل مراكبه فى بحر القلزم ليحارب أصحاب أمير الكرك الصليبى ، ففعل ذلك وظفر

(١) البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣١١ – ٣١٣ .

(٢) وكان صلاح الدين قد بشر بفتح بيت المقدس حين فتح حلب . المصدر السابق ، ص ٣١٣ ، ٣١٤ ، وقد استشهد فى حصار حلب تاج الملوك بورى بن أيوب أخو صلاح الدين نتيجة جرح بليغ ، فمات منه بعد أيام ، وكان أصغر أولاد أيوب ، لم يبلغ عشرين سنة ، وقيل : إنه جاوزها بسنتين ، وهكذا نرى نماذج أعادت إلى الأبصار سيرة صحابة رسول الله ﷺ .

بهم . وأمن البر والبحر بإذن الله تعالى ، وأرسل الناصر إلى أخيه العادل ليشكر ذلك عن مساعيه[1] .

* * *

– الملك الناصر يستخلف ولده الظاهر غازى على حلب .

– العودة إلى دمشق .

– الملك الناصر يخرج من دمشق جمادى الآخرة سنة تسع وسبعين وخمسمائة قاصدا نحو بيت المقدس .

إنَّ المشكلة الحقيقية على طريق العودة إلى القدس ، هى مشكلة الرجال ..

نلمح هذا فى اليقظة الدائمة ، والعمل الدائب من صلاح الدين لتأمين الجبهات كلها وهو يسعى لاستعادة بيت المقدس .

– فى رجب سنة تسع وسبعين وخمسمائة (سار السلطان إلى الكرك فحاصرها وفى صحبته تقى الدين عمر بن أخيه) ..

– استدعاء العادل لأخيه ، واستعماله على حلب ، ليكون قريبا منه ، فإنَّه كان لا يقطع أمرا دونه[2] .

– السلطان يرسل ابن أخيه تقى الدين عمر إلى مصر ثانيا ، ويستدعى ولده الظاهر ، وكذلك نوابه ومن يعز عليه ليكونوا قريبين منه .

– مرض الملك الناصر صلاح الدين منذ سنة ثمانين وخمسمائة مرضا شديدا .

ثم نذر لئن شفاه الله من مرضه هذا ، ليصرفن همته كلها إلى قتال الفرنج ، ولا يقاتل بعد ذلك مسلما ، وليجعل أكبر همه فتح بيت المقدس ، ولو صرف فى سبيل الله جميع ما يملكه من الأموال والذخائر ، وليقتلن البرنس صاحب الكرك

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣١١ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٣١٤ – ٣١٥ .

بيده ، لأنه تنقص رسول الله - ﷺ - وأخذ قافلة ذاهبة من مصر إلى بلاد الشام ، فأخذ أموالهم وضرب رقابهم وهو يقول : (أين محمدكم ؟ دعوه ينصركم) ، (وكان هذا النذر بإشارة القاضي الفاضل ، وهو أرشده إليه وحثه عليه ، حتى عقده مع الله عز وجل فعند ذلك شفاه الله وعافاه من ذلك المرض)[1] .

(١) البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣١٥ ، ٣١٦ .

الجـــزء الثالـــث

حطيـــن

موقعة حطين كانت أمارة وتقدمة وإشارة لفتح بيت المقدس واستعادته من يد الكفرة .

الوثائق[1] تتحدث :

(وبرز السلطان من دمشق يوم السبت مستهل محرم فى جيشه ، فسار إلى رأس الماء ، فنزل ولده الأفضل هناك فى طائفة من الجيش ، وتقدم السلطان ببقية الجيش إلى بصرى ، فخيم على قصر أبى سلام ينتظر قدوم الحجاج ، وفيهم أخته ست الشام وابنها حسام الدين محمد بن عمر بن لاشين ، ليسلموا من معرة برنس الكرك ، فلما جاز الحجيج سالمين سار السلطان فنزل على الكرك وقطع ما حوله من الأشجار ، ورعى الزرع وأكلوا الثمار ، وجاءت العساكر المصرية وتوافت الجيوش المشرقية ، فنزلوا عند ابن السلطان على رأس الماء ، وبعث الأفضل سرية نحو بلاد الفرنج فقتلت وغنمت وسلمت ورجعت ، فبشر بمقدمات الفتح والنصر ، وجاء السلطان بجحافله ، فالتفت عليه جميع العساكر ، فرتب الجيوش وسار قاصدا بلاد الساحل ، وكان من جملة من معه من المقاتلة اثنا عشر ألفا غير المتطوعة فتسامعت الفرنج بقدومه ، فاجتمعوا كلهم وتصالحوا فيما بينهم ، وتصالح قومس طرابلس وبرنس الكرك الفاجر ، وجاءوا بحدهم وحديدهم ، واستصحبوا معهم صليب الصلبوت ، يحمله منهم عباد الطاغوت وضلال الناسوت ، فى خلق لا يعلمهم إلا الله عز وجل ، يقال كانوا خمسين ألفا ، وقيل :

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣٢٠ ـ ٣٢٦ ؛ الروضتين ، جـ ٢ ، ص ٨٠ ؛ البرق الشامى ، ص ٢٩٨ .

ثلاثا وستين ألفا . وقد خوفهم صاحب طرابلس من المسلمين فاعترض عليه البرنس صاحب الكرك ، فقال له : لا أشك أنك تحب المسلمين وتخوفنا كثرتهم ، وسترى غب ما أقول لك ، فتقدموا نحو المسلمين ؛ وأقبل السلطان ففتح طبرية وتقوى بما فيها من الأطعمة والأمتعة وغير ذلك ، وتحصنت منه القلعة ، فلم يعبأ بها ، وحاز البحيرة فى حوزته ، ومنع الله الكفرة أن يصلوا منها إلى قطرة ، حتى صاروا فى عطش عظيم ، فبرز السلطان إلى سطح الجبل الغربى من طبرية عند قرية يقال لها : حطين ، التى يقال : إن فيها قبر شعيب عليه الصلاة والسلام وجاء العدو المخذول ، وكان فيهم صاحب عكا وكفرنكا وصاحب الناصرة وصاحب صور وغير ذلك من جميع ملوكهم ، فتواجه الفريقان وتقابل الجيشان وأسفر وجه الإيمان وأغبر وأقتم وأظلم وجه الكفر والطغيان ، ودارت دائرة السوء على عبدة الصلبان وذلك عشية يوم الجمعة . فبات الناس على مصافهم ، وأصبح صباح يوم السبت الذى كان يوما عسيرا على أهل الأحد ، وذلك لخمس بقين من ربيع الآخر ، فطلعت الشمس على وجوه الفرنج ، واشتد الحر ، وقوى بهم العطش ، وكان تحت أقدام خيولهم حشيش قد صار هشيما ، وكان ذلك عليهم مشئوما فأمر السلطان النفاطة أن يرموه بالنفط ، فرموه فتأجج نارا تحت سنابك خيولهم ، فاجتمع عليهم حر الشمس وحر العطش وحر النار وحر السلاح وحر رشق النبال . وتبارز الشجعان ، ثم أمر السلطان بالتكبير والحملة الصادقة ، فحملوا وكان النصر من الله عز وجل ، فمنحهم الله أكتافهم ، فقتل منهم ثلاثون ألفا فى ذلك اليوم ، وأسر ثلاثون ألفا من شجعانهم وفرسانهم . وكان فى جملة من أسر جميع ملوكهم سوى قومس طرابلس ، فإنه انهزم فى أول المعركة . واستلبهم السلطان صليبهم الأعظم ، وهو الذى يزعمون أنه صلب عليه المصلوب ، وقد غلفوه بالذهب واللآلىء النفيسة ، ولم يسمع بمثل هذا اليوم فى عز الإسلام وأهله . ودمغ الباطل وأهله ، حتى ذكر أن بعض الفلاحين رآه بعضهم يقود نيفا وثلاثين أسيرا من الفرنج ، قد ربطهم بطنب خيمة ، وباع بعضهم أسيرا بنعل ليلبسها فى رجله ، وجرت أمور لم يسمع بمثلها إلا فى زمن الصحابة والتابعين ، فلله الحمد دائما كثيرا طيبا مباركا) .

(فلما تمت هذه الوقعة ، ووضعت الحرب أوزارها أمر السلطان بضرب مخيم عظيم ، وجلس فيه على سرير المملكة ، وعن يمينه أسرة وعن يساره مثلها ، وجىء

بالأسارى تتهادى بقيودها — فأمر بضرب أعناق جماعة من مقدمى الداوية — والأسارى بين يديه — صبرا ، ولم يترك أحدا منهم ممن كان يذكر الناس عنه شرا ، ثم جيء بملوكهم فأجلسوا عن يمينه ويساره على مراتبهم فأجلس ملكهم الكبير عن يمينه ، وأجلس أرناط برنس الكرك وبقيتهم عن شماله ، ثم جيء إلى السلطان بشراب من الجلاب مثلوجا ، فشرب ثم ناول الملك فشرب ، ثم ناول أرناط صاحب الكرك فغضب السلطان وقال له : إنما ناولتك ولم آذن لك أن تسقيه ، هذا لا عهد له عندى . ثم تحول السلطان إلى خيمة داخل تلك الخيمة ، واستدعى أرناط صاحب الكرك ، فلما أوقف بين يديه قام إليه بالسيف ، ودعاه إلى الإسلام فامتنع ، فقال له : نعم أنا أنوب عن رسول الله — ﷺ — فى الانتصار لأمته ، ثم قتله وأرسل برأسه إلى الملوك وهم فى الخيمة ، وقال : إن هذا تعرض لسب رسول الله — ﷺ — ثم قتل السلطان جميع من كان من الأسارى من الداوية والاستثارية صبرا ، وأراح المسلمين من هذين الجنسين الخبيثين ، ولم يسلم ممن عرض عليه الإسلام إلا القليل . فيقال : إنه بلغت القتلى ثلاثين ألفا ، والأسارى كذلك كانوا ثلاثين ألفا ، وكان جملة جيشهم ثلاثة وستين ألفا . وكان من سلم مع قلتهم وهرب أكثرهم جرحى فماتوا ببلادهم ، وممن مات كذلك قومس طرابلس ، فإنه انهزم جريحا فمات بها بعد مرجعه ثم أرسل السلطان برؤوس أعيان الفرنج ، ومن لم يقتل من رؤوسهم ، وبصليب الصلبوت صحبة القاضى ابن أبى عصرون إلى دمشق ليودعوا فى قلعتها ، فدخل بالصليب منكوسا ، وكان يوما مشهودا) .

(ثم سار السلطان إلى قلعة طبرية فأخذها ، وقد كانت طبرية تقاسم بلاد حوران والبلقاء وما حولها من الجولان وتلك الأراضى كلها بالنصف فأراح الله المسلمين من تلك المقاسمة . ثم سار السلطان إلى حطين فزار قبر شعيب ، ثم ارتفع منه إلى إقليم الأردن ، فتسلم تلك البلاد كلها ، وهى قرى كثيرة كبار وصغار ، ثم سار إلى عكا فنزل عليها يوم الأربعاء سلخ ربيع الآخر ، فافتتحها صلحا يوم الجمعة ، وأخذ ما كان بها من حواصل الملوك وأموالهم وذخائرهم ومتاجر وغيرها ، واستنقذ من كان بها من أسرى المسلمين ، فوجد فيها أربعة آلاف أسير ، ففرج الله عنهم . وأمر بإقامة الجمعة بها ، وكانت أول جمعة أقيمت

بالساحل بعد أن أخذه الفرنج ، نحوا من سبعين سنة . ثم سار منها إلى صيدا ، وبيروت ، وتلك النواحى من السواحل يأخذها بلدا بلدا ، لخلوها من المقاتلة والملوك ، ثم رجع سائرا إلى غزة وعسقلان ونابلس وبيسان وأراضى الغور ، فملك ذلك كله ، واستناب على نابلس ابن أخيه حسام الدين عمر بن محمد ابن لاشين ، وهو الذى افتتحها . وكان جملة ما افتتحه السلطان فى هذه المدة القريبة خمسين بلدا كبارا ، كل بلد له مقاتلة وقلعة ومنعة ، وغنم الجيش والمسلمون من هذه الأماكن شيئا كثيرا ، وسبوا خلقا) .

(ثم إن السلطان أمر جيوشه أن ترتع فى هذه الأماكن مدة شهور ، ليستريحوا وتحموا أنفسهم وخيولهم لفتح بيت المقدس ، وطار فى الناس أن السلطان عزم على فتح بيت المقدس ، فقصده العلماء والصالحون تطوعا ، وجاءوا إليه ، ووصل أخوه العادل بعد وقعة حطين ، وفتح عكا . ففتح بنفسه حصونا كثيرة . فاجتمع من الجيوش ومن عباد الله شىء كثير جدا . فعند ذلك قصد السلطان القدس بمن معه كما سيأتى .

وقد امتدحه الشعراء بسبب وقعة حطين فقالوا ، وأكثروا ، وكتب إليه القاضى الفاضل من دمشق – وهو مقيم بها لمرض اعتراه –: (ليهن المولى أن الله أقام به الدين ، وكتب المملوك هذه الخدمة والرؤوس لم ترفع من سجودها ، والدموع لم تمسح من خدودها ، وكلما ذكر المملوك أن البيع تعود مساجد ، والمكان الذى كان يقال فيه : إن الله ثالث ثلاثة يقال فيه اليوم : أنه الواحد . سجد لله شكرا تارة يفيض من لسانه وتارة يفيض من جفنه سرورا بتوحيد الله تعالى الملك الحق المبين ، وأن يقال : محمد رسول الله الصادق الأمين . وجزى الله يوسف خيرا عن إخراجه من سجنه ، والمماليك ينتظرون المولى ، وكل من أراد أن يدخل الحمام بدمشق قد عزم على دخول حمام طبرية .

تلك المكارم لا قعبان من لبن وذلك السيف لا سيف ابن ذى يزن

ثم قال : وللألسنة بعد فى هذا الفتح تسبيح طويل ، وقول جميل جليل)[1] :

(١) البرق الشامى ص ٣٠٩ – ٣١٢ .

الجـــزء الرابـــع

« **فتح بيت المقدس فى هذه السنة** واستنقاذه من أيدى النصارى بعد أن استحوذوا عليه مدة ثنتين وتسعين سنة » .

(لما افتتح السلطان تلك الأماكن المذكورة فيما تقدم ، أمر العساكر فاجتمعت ، ثم سار نحو بيت المقدس ، فنزل غربى بيت المقدس فى الخامس من رجب من هذه السنة – أعنى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة – فوجد البلد قد حصنت غاية التحصين ، وكانوا ستين ألف مقاتل ، دون بيت المقدس أو يزيدون ، وكان صاحب القدس يومئذ رجلا يقال له : « بالبان بن بازران » ، ومعه من سلم من وقعة حطين يوم التقى الجمعان ، من الداوية والاستثارية أتباع الشيطان ، وعبدة الصلبان ، فأقام السلطان بمنزله المذكور خمسة أيام ، وسلم إلى كل طائفة من الجيش ناحية من السور وأبراجه ، ثم تحول السلطان إلى ناحية الشام لأنه رآها أوسع للمجال ، والجلاد والنزال ، وقاتل الفرنج دون البلد قتالا شديدا ، هائلا ، وبذلوا أنفسهم وأموالهم فى نصرة دينهم وقمامتهم ، واستشهد فى الحصار بعض أمراء المسلمين فحنق عند ذلك كثير من الأمراء والصالحين ، واجتهدوا فى القتال ونصب المجانيق والعرادات ، على البلد ، وغنت السيوف والرماح الخطيات ، والعيون تنظر إلى الصلبان منصوبة فوق الجدران ، وفوق قبة الصخرة صليب كبير ، فزاد ذلك أهل الإيمان حنقا وشدة التشمير ، وكان ذلك يوما عسيرا على الكافرين غير يسير . فبادر السلطان بأصحابه إلى الزاوية الشرقية الشمالية من السور فنقبها وعلقها وحشاها وأحرقها ، فسقط ذلك الجانب وخر البرج برمته ، فإذا هو واجب . فلما شاهد الفرنج ذلك الحادث الفظيع ، والخطب

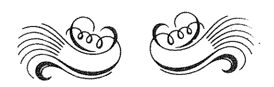
المؤلم الوجيع ، قصد أكابرهم السلطان ، وتشفعوا إليه أن يعطيهم الأمان ، فامتنع من ذلك ، وقال : لا أفتحها إلا عنوة ، كما افتتحتموها أنتم عنوة . ولا أترك بها أحدا من النصارى إلا قتلته كما قتلتم أنتم من كان بها من المسلمين ، فطلب صاحبها « بالبان بن بازران » الأمان ليحضر عنده فأمنه ، فلما حضر ترقق للسلطان ، وذل ذلا عظيما ، وتشفع إليه بكل ما أمكنه فلم يجبه إلى الأمان لهم ، فقالوا : إن لم تعطنا الأمان رجعنا فقتلنا كل أسير بأيدينا – وكانوا قريبا من أربعة آلاف – وقتلنا ذرارينا وأولادنا ونساءنا ، وخربنا الدور والأماكن الحسنة ، وأحرقنا المتاع وأتلفنا ما بأيدينا من الأموال ، وهدمنا قبة الصخرة وحرقنا ما نقدر عليه ، ولا نبقى ممكنا فى إتلاف ما نقدر عليه ، وبعد ذلك نخرج فنقاتل قتال الموت ، ولا خير فى حياتنا بعد ذلك ، فلا يقتل واحد منا حتى يقتل أعدادا منكم ، فماذا ترتجى بعد هذا من الخير ؟) .

(فلما سمع السلطان ذلك أجاب إلى الصلح وأناب ، على أن يبذل كل رجل منهم عن نفسه عشرة دنانير ، وعن المرأة خمسة دنانير ، وعن كل صغير وصغيرة ديارين ، ومن عجز عن ذلك كان أسيرا للمسلمين ، وأن تكون الغلات والأسلحة والدور للمسلمين ، وأنهم يتحولون منها إلى مأمنهم ، وهى مدينة صور . فكتب الصلح بذلك ، وأن من لم يبذل ما شرط عليه إلى أربعين يوما فهو أسير ، فكان جملة من أسر بهذا الشرط ستة عشر ألف أسير من رجال ونساء وولدان ، ودخل السلطان والمسلمون البلد يوم الجمعة قبل وقت الصلاة بقليل ، وذلك يوم السابع والعشرين من رجب . قال العماد : وهى ليلة الإسراء برسول الله – ﷺ – من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى . قال أبو شامة : وهو أحد الأقوال فى الإسراء ، ولم يتفق للمسلمين صلاة الجمعة يومئذ خلافا لمن زعم أنها أقيمت يومئذ ، وأن السلطان خطب بنفسه بالسواد ، والصحيح أن الجمعة لم يتمكنوا من إقامتها يومئذ لضيق الوقت ، وإنما أقيمت فى الجمعة المقبلة ، وكان الخطيب محيى الدين بن محمد بن على القرشى ابن الزكى كما سيأتى قريبا) .

ولكن نظفوا المسجد الأقصى مما كان فيه من الصلبان والرهبان والخنازير ، وخرجت دور الداوية وكانوا قد بنوها غربى المحراب الكبير ، واتخذوا المحراب مشتاً – لعنهم الله – فنظف من ذلك كله ، وأعيد إلى ما كان عليه فى الأيام

الإسلامية ، وغسلت الصخرة بالماء الطاهر ، وأعيد غسلها بماء الورد والمسك الفاخر ، وأبرزت للناظرين ، وقد كانت مستورة مخبوءة عن الزائرين ، ووضع الصليب عن قبتها ، وعادت إلى حرمتها ، وقد كان الفرنج قلعوا منها قطعا فباعوها من أهل البحور الجوانية بزنتها ذهبا ، فنذر استعادة ما قطع منها) .

(ثم قبض من الفرنج ما كانوا بذلوه عن أنفسهم من الأموال ، وأطلق السلطان خلقا منهم بنات الملوك بمن معهن من النساء والصبيان والرجال ، ووقعت المسامحة فى كثير منهم ، وشفع فى أناس كثير فعفا عنهم ، وفرق السلطان جميع ما قبض منهم من الذهب فى العسكر ، ولم يأخذ منه شيئا مما يقتنى ويدخر ، وكان رحمه الله حليما كريما مقداما شجاعا رحيما)[1] .



(١) البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣٢٤ ؛ الروضتين ، جـ ٢ ، ص ١٠٧ ، ١١٠ ، هذا النص منقول بأكمله من المصدر .

الجــزء الخامــس

« أول جمعة أقيمت ببيت المقدس بعد فتحه »[1]

(لما تطهر بيت المقدس مما كان فيه من الصلبان والنواقيس والرهبان والقساوس ، ودخله أهل الإيمان ، ونودى بالأذان وقرىء القرآن ، ووحد الرحمن ، كان أول جمعة أقيمت فى الرابع من شعبان ، بعد يوم الفتح بثمان ، فنصب المنبر إلى جانب المحراب ، وبسطت البسط وعلقت القناديل ، وتلى التنزيل ، وجاء الحق وبطلت الأباطيل ، وصفت السجادات وكثرت السجدات ، وتنوعت العبادات ، وارتفعت الدعوات ، ونزلت البركات ، وانجلت الكربات ، وأقيمت الصلوات ، وأذن المؤذنون ، وخرس القسيسون ، وزال البؤس وطابت النفوس ، وأقبلت السعود وأدبرت النحوس ، وعبد الله الأحد الصمد ، الـذى لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ، وكبره الراكع والساجد ، والقائم والقاعد ، وامتلأ الجامع ، وسالت لرقة القلوب المدامع ، ولما أذن المؤذنون للصلاة قبل الزوال كادت القلوب تطير من الفرح فى ذلك الحال ، ولم يكن عين خطيب ، فبرز من السلطان المرسوم الصلاحى وهو فى قبة الصخرة أن يكون القاضى محيى الدين بن الزكى اليوم خطيبا ، فلبس الخلعة السوداء ، وخطب للناس خطبة سنية فصيحة بليغة ، ذكر فيها شرف البيت المقدس ، وما ورد فيه من الفضائل والترغيبات ، وما فيه من الدلائل والأمارات ، وقد أورد الشيخ أبو شامة الخطبة فى الروضتين بطولها ، وكان أول ما قال : ﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين ﴾ .

ثم أورد تحميدات القرآن كلها ، ثم قال : (الحمد لله معز الإسلام

---

(١) الروضتين ، جـ ٢ ، ص ٩٣ – ١٠١ .

بنصره ، ومذل الشرك بقهره ، ومصرف الأمور بأمره ، ومزيد النعم بشكره ومستدرج الكافرين بمكره ، الذى قدر الأيام دولا بعدله ، وجعل العاقبة للمتقين بفضله ، وأفاض على العباد من طله وهطله ، الذى أظهر دينه على الدين كله ، القاهر فوق عباده فلا يمانع ، والظاهر على خليقته فلا ينازع ، والآمر بما يشاء فلا يراجع ، والحاكم بما يريد فلا يدافع . أحمده على إظفاره وإظهاره ، وإعزازه لأوليائه ونصرة أنصاره ، ومطهر بيت المقدس من أدناس الشرك وأوضاره ، حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر أجهاره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، شهادة من طهر بالتوحيد قلبه ، وأرضى به ربه ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله رافع الشكر وداحض الشرك ، ورافض الإفك ، الذى أسرى به من المسجد الحرام إلى هذا المسجد الأقصى ، وعرج به منه إلى السموات العلى ، إلى سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، ما زاغ البصر وما طغى - ﷺ - وعلى خليفته الصديق السابق إلى الإيمان ، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان ، وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفّان - ذى النورين - جامع القرآن وعلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب مزلزل الشرك ، ومكسر الأصنام ، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان) .

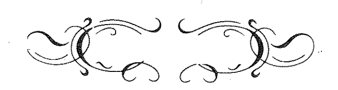
ثم ذكر الموعظة ، وهى مشتملة على تغبيط الحاضرين بما يَسَّره الله على أيديهم من فتح بيت المقدس، الذى من شأنه كذا وكذا ، فذكر فضائله ومآثره، وأنه أول القبلتين ، وثانى المسجدين ، وثالث الحرمين ، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه ، ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه ، وإليه أسرى برسول الله - ﷺ - من المسجد الحرام ، وصلى فيه بالأنبياء والرسل الكرام ، ومنه كان المعراج إلى السموات ، ثم عاد إليه ثم سار منه إلى المسجد الحرام على البراق ، وهو أرض المحشر والمنشر يوم التلاق ، وهو مقر الأنبياء ، ومقصد الأولياء ، وقد أسس على التقوى من أول يوم .

(قلت : ويقال : إن أول من أسسه[1] يعقوب - عليه السلام - بعد أن بنى

(١) ذكرنا ما أورده الإمام ابن حجر بأن آدم عليه السلام هو أول من بنى المسجد الأقصى (صفحة ١١ من كتابنا الذى بين يديك) .

الخليل المسجد الحرام بأربعين سنة ، كما جاء فى الصحيحين ، ثم جدد بناءه سليمان بن داود - عليهما السلام - كما ثبت فيه الحديث بالمسند والسنن ، وصحيح ابن خزيمة وابن حبان والحاكم وغيرهم . وسأل سليمان - عليه السلام - الله عند فراغه منه خلالا ثلاثا : حكما يصادف حكمة ، وملكا لا ينبغى لأحد من بعده ، وأنه لا يأتى أحد هذا المسجد لا ينهزه إلا الصلاة فيه إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه .

ثم ذكر تمام الخطبتين ، ثم دعا للخليفة العباسى ، ثم دعا للسلطان الناصر صلاح الدين . وبعد الصلاة جلس الشيخ زين الدين أبو الحسن ابن على نجا المصرى على كرسى الوعظ بإذن السلطان فوعظ الناس ، واستمر القاضى ابن الزكى يخطب بالناس فى أيام الجمع أربع جمعات ، ثم قرر السلطان للقدس خطيبا مستقرا ، وأرسل إلى حلب فاستحضر المنبر الذى كان الملك العادل نور الدين الشهيد قد استعمله لبيت المقدس ، وقد كان يؤمل أن يكون فتحه على يديه ، فما كان إلا على يدى بعض أتباعه صلاح الدين بعد وفاته)[1] .



(٢) البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٣٥ - ٣٣٦ ، والنص مأخوذ من المصدر .

الجـــزء الســـــادس

تحرير بيــت المقــدس

دروس وعبـــر

وقراءة الوثائق تضع أيدينا على الكثير من الحقائق الهامة على طريق التحرير والعودة إلى القدس :

– قبل الهجوم الشامل لتحرير بيت المقدس بعدة سنوات ، وجه صلاح الدين نداء إلى العساكر الحلبية والجزيرية والمصرية والشامية أن يقدموا عليه لقتال الفرنج ، فلبوا النداء ، فقاتل بها العدو قتالا محدودا أمر بعده العساكر أن ينصرفوا إلى بلادهم ، وعاد هو إلى دمشق ليؤدى فرض الصيام وليجل الخيل ويحد الحسام[1] .

فهل كان هذا التصرف من صلاح الدين ليختبر مدى استجابة الجبهة الإسلامية لندائه إذا ما جد الجد ؟..... نعم .

– حرص صلاح الدين على سلامة المسلمين ، فها هو لم يتحرك تجاه حطين ، حتى جاز الحجاج سالمين[2] .

– ملة الكفر واحدة ، فحينما تسامع الفرنج بقدوم عساكر المسلمين بقيادة الملك الناصر (اجتمعوا كلهم وتصالحوا فيما بينهم) ، وهذا شيء لابد وأن يدركه العاملون على طريق العودة إلى القدس ، فأعداؤهم قد يختلفون فيما بينهم ، ولكن يتحالفون ضدهم[3] .

– إن الخطة العسكرية التى اتبعها صلاح الدين جديرة بالدراسة

(١) البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣١٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٢٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٢٠ .

والاهتمام ، وهى جد مهمة رغم مضى السنين والأعوام .

– إن صلاح الدين عرف بكرم خلقه ، وبالعفو عند المقدرة ، ولكن هنالك مواقف لا يملك العفو فيها ، وهى حينما وقع أمير الكرك أرياط فى يده ، دعاه إلى الإسلام فامتنع ، قمة الخلق ، بل قمة الدين والتسامح ، فلو أسلم لحفظ دمه ، رغم ما ارتكبه من جرائم فى حق المسلمين .

(فقال له صلاح الدين : نعم أنا أنوب عن رسول الله – ﷺ – فى الانتصار لأمته) ؛ وكان بهذه يذكره بجريمته الشنعاء حينما قتل أفراد القافلة التى كانت تسير من بصرى إلى بلاد الشام وهو يقول : (أين محمدكم ؟ دعوه ينصركم)[1] .

– يجب على المسلمين أن لا ييأسوا أبدا من رحمة الله ، ولابد أن يصبروا ويحتسبوا ويعملوا على طريق العودة إلى بلاد الشام ، فها هم المسلمون يعودون إلى القدس بعد أن استحوذ عليها الصليبيون مدة ثنتين وتسعين سنة ، منع أثناءها النداء « الله أكبر » أن يتردد ، وتحولت فيها أثناءها المساجد إلى بيع[2] .

– إنّ النصر بيد الله ، يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

– موقف صلاح الدين من الصفى بن الفايض وكيل الخزانة بدمشق بعد استرجاع بيت المقدس ، وكان قد بنى له (دارا بالقلعة هائلة مطلة على الشرف القبلى) لقد عزله ، وقال : (إنَّا لم نخلق للمقام بدمشق ولا بغيرها من البلاد ، وإنَّما خلقنا لعبادة الله عز وجل والجهاد فى سبيله ، وهذا الذى عملته مما يثبط النفوس ويقعدها عما خلقت له)[3] .

– حاول الرافضة من أنصار العبيديين بمصر أن يعيدوا دولة ما تسمى بالفاطميين ، منتهزين فرصة انشغال صلاح الدين فى تحرير بيت المقدس[4] ، ولكن الله سلم ، وهذا يؤكد من جهة أخرى أن أعداء الإسلام لا يحرمون من أعوان لهم يتواجدون بصفة دائمة داخل الصف المسلم ، منتهزين أول فرصة تلوح لهم لتنفيذ مؤامراتهم الدنيئة .

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣١٦ ، ٣٢١ .
(٢) البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣٢٣ .
(٣) البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣٢٩ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٣٣١ .

الجــــزء السابـــع

سقوط عكــا فى يد أعداء الإســـلام

« دروس وعبر » :

إن استعادة القدس على يد صلاح الدين وصحبه ، قد هز أوروبا هزا عنيفا ، تداعى على أثره الصليبيون (الفرنج) لإعداد ما فى طوقهم لمواجهة طلائع الجهاد الإسلامى ، لأنهم قد أدركوا أن عودة القدس إلى يد المسلمين ، هو نذير بتحرير البقرة الحلوب التى كانت تدر عليهم أحسن الخيرات بين أيديهم ، بعد أن تصوروا أنها لن تفلت من أيديهم أبدا . ووصل الصليبيون (الفرنج) إلى عكا وحاصروها سنة خمس وثمانين وخمسمائة ، وتتابعت عليهم الإمدادات من كل أنحاء أوروبا[1] ، ومن القواعد الصليبية فى البحر المتوسط ، حتى أن نساء الفرنج ليخرجن بنية القتال ، ومنهن من تأتى بنية راحة الغرباء لينكحوها فى الغربة ، فيتخذون راحة وخدمة وقضاء وطر ، قدم إليهم مركب فيه ثلاثمائة امرأة من أحسن النساء ، وأجملهن بهذه النية[2]

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣٣٥ : الحقيقة أن أبناء أوروبا قد غرر بهم ، وكانوا ضحية حملة إعلامية مضللة كاذبة ، فبعد عودة القدس إلى أيدى المسلمين ركبت جماعة من الرهبان والقسيسين الذين كانوا ببيت المقدس وغيره ،.... من صور فى أربعة مراكب ، وخرجوا يطوفون ببلدان النصارى البحرية ، وما هو قاطع البحر من الناحية الأخرى ، يحرضون الفرنج ويحثونهم على الانتصار لبيت المقدس ، ويذكرون لهم ما جرى على أهل القدس ، وأهل السواحل من القتل والسبى وخراب الديار ، وقد صوروا صورة المسيح وصورة عربى آخر يضربه ويؤذيه ، فإذا سألوهم من هذا الذى يضرب المسيح ؟ قالوا : هذا نبى العرب يضربه ، وقد جرحه ومات . فينزعجون لذلك ويحمون ويبكون ويحزنون ، فعند ذلك خرجوا من بلادهم لنصرة دينهم ونبيهم ، وموضع حجهم على الصعب والذلول حتى النساء المخدرات والزوانى والزانيات الذين هم عند أعليهم أعز الثمرات . البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣٣٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٣٤ .

ورابط المسلمون داخل عكا وحولها بقيادة الملك الناصر صلاح الدين ، وصبروا وصابروا لمدة سبعة وثلاثين شهرا ، ولكن شاءت إرادة الله أن تسقط عكا فى أيدى الصليبيين .

وفى وسط المحنة الشديدة يبرز على بن عريف النحاسين بدمشق .

صورة مُشَرِّقة للشباب المسلم :

(تواترت مراكب الفرنج من كل جزيرة لأجل نصرة أصحابهم ، يمدونهم بالقوة والميرة ، وعملت الفرنج ثلاثة أبرجة من خشب وحديد ، عليها جلود مسقاة بالخل ، لئلا يعمل فيها النفط ، يسع البرج منها خمسمائة مقاتل ، وهى أعلا من أبرجة البلد ، وهى مركبة على عجل بحيث يديرونها كيف شاءوا ، وعلى ظهر كل منها منجنيق كبير ، فلما رأى المسلمون ذلك أهمهم أمرها ، وخافوا على البلد ومن فيه من المسلمين أن يؤخذوا ، وحصل لهم ضيق منها ، فأعمل السلطان فكره بإحراقها ، وأحضر النفاطين ووعدهم الأموال الجزيلة إن هم أحرقوها ، فانتدب لذلك شاب نحاس من دمشق يعرف بعلى بن عريف النحاسين ، والتزم بإحراقها ، فأخذ النفط الأبيض وخلطه بأدوية يعرفها ، وغلى ذلك فى ثلاثة قدور من نحاس حتى صار نارا تتأجج ، ورمى كل برج منها بقدر من تلك القدور بالمنجنيق من داخل عكا ، فاحترقت الأبرجة الثلاثة حتى صارت نارا بإذن الله ، لها ألسنة فى الجو متصاعدة ، واحترق من كان فيها ، فصرخ المسلمون صرخة واحدة بالتهليل ، واحترق فى كل برج منها سبعون كفورا ، وكان يوما على الكافرين عسيرا ، وذلك يوم الاثنين الثانى والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة (٥٨٥ هـ) ، وكان الفرنج قد تعبوا فى عملها سبعة أشهر ، فاحترقت فى يوم واحد ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا﴾[١]، ثم أمر السلطان لذلك الشاب النحاس بعطية سنية ، وأموال كثيرة ، فامتنع أن يقبل شيئا من ذلك ، وقال : إنَّما عملت ذلك ابتغاء وجه الله ، ورجاء ما عنده سبحانه ، فلا أريد منكم جزاء ولا شكورا[٢] .

---

(١) الفرقان : ٢٣ .

(٢) البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٣٥ — ٣٣٦ . والنص مأخوذ من المصدر .

وفى هذا تبدو العقلية الإسلامية الفذة فى أبهى صورها ، إنَّها تستعين بالله ولا تعجز ، ويتجلى الإيمان بالله فى أبهى صوره حينما يأمر الملك الناصر صلاح الدين بعطية سنية وأموال كثيرة للشاب المخترع ، فيرد الشاب قائلا : (إنَّما عملت ذلك ابتغاء وجه الله ، ورجاء ما عنده سبحانه ، فلا أريد منكم جزاء ، ولا شكورا)(١) .

وتبدو العناية الإلهية ورحمتها الواسعة بالصف المسلم وقد اجتمعت عليه الدنيا كلها :

لقد قدم مع من قدم لقتال المسلمين ملك الألمان : (فإنه أقبل فى عدد وعدد كثير جدا ، قريب من ثلاثمائة ألف مقاتل ، من نيته خراب البلد وقتل أهلها من المسلمين ، والانتصار لبيت المقدس ، وأن يأخذ البلاد إقليما بعد إقليم ، حتى مكة والمدينة ، فما نال من ذلك شيئا بعون الله وقوته ، بل أهلكهم الله عز وجل فى كل مكان وزمان ، فكانوا يتخطفون كما يتخطف الحيوان حتى اجتاز ملكهم بنهر شديد الجرية ، فدعته نفسه لأن يسبح فيه ، فلما صار فيه حمله الماء إلى شجرة فشجت رأسه ، وأخمدت أنفاسه ، وأراح الله منه العباد والبلاد ، فأقيم ولده الأصغر فى الملك ، وقد تمزق شملهم ، وقَلَّت منهم العدة ، ثم أقبلوا لا يجتازون ببلد إلا قتلوا فيه ، فما وصلوا إلى أصحابهم الذين على عكا إلا فى ألف فارس ، فلم يرفعوا بهم رأسا ، ولا لهم قدرا ولا قيمة بينهم ، ولا عند أحد من أهل ملتهم ، ولا غيرهم ، وهكذا شأن من أراد إطفاء نور الله ، وإذلال دين الإسلام)(٢) .

* * *

الحرب خدعة :

﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ :

(وكتب متولى عكا من جهة السلطان صلاح الدين وهو الأمير بهاء الدين قراقوش ، فى العشر الأول من شعبان إلى السلطان : أنه لم يبق عندهم

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٣٣٥ - ٣٣٦ . (٢) البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣٣٦ .

فى المدينة من الأقوات إلا ما يبلغهم إلى ليلة النصف من شعبان ، فلما وصل الكتاب إلى السلطان أسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم ، خوفا من إشاعة ذلك ، فيبلغ العدو فيقدموا على المسلمين ، وتضعف القلوب . وكان قد كتب إلى أمير الأسطول بالديار المصرية أن يقدم بالميرة إلى عكا ، فتأخر سيره ، ثم وصلت ثلاث بطش ليلة النصف ، فيها من الميرة ما يكفى أهل البلد طول الشتاء ، وهى صحبة الحاجب لؤلؤ ، فلما أشرفت على البلد نهض إليها أسطول الفرنج ليحول بينها وبين البلد ، ويتلف ما فيها ، فاقتتلوا فى البحر قتالا شديدا ، والمسلمون فى البر يبتهلون إلى الله عز وجل فى سلامتها ، والفرنج أيضا تصرخ برا وبحرا ، وقد ارتفع الضجيج ، فنصر الله المسلمين ، وسلم مراكبهم ، وطابت الريح للبطش فسارت فأحرقت المراكب الفرنجية المحيطة بالميناء ، ودخلت البلد سالمة ، ففرح بها أهل البلد والجيش فرحا شديدا ، وكان السلطان قد جهز قبل هذه البطش الثلاث بطشة كبيرة من بيروت ، فيها أربعمائة غرارة ، وفيها من الجبن والشحم والقديد والنشاب والنفط شىء كثير ، وكانت هذه البطشة من بطش الفرنج المغنومة وأمر من فيها من التجار أن يلبسوا زى الفرنج حتى أنهم حلقوا لحاهم ، وشدوا الزنانير ، واستصحبوا فى البطشة معهم شيئا من الخنازير ، وقدموا بها على مراكب الفرنج ، فاعتقدوا أنهم منهم ، وهى سائرة إليهم كالسهم إذا خرج من كبد القوس ، فحذرهم الفرنج غائلة الميناء من ناحية البلد ، فاعتذروا بأنهم مغلوبون عنها ، ولا يمكنهم حبسها من قوة الريح ، وما زالوا كذلك حتى ولجوا الميناء ، فأفرغوا ما كان معهم من الميرة ، والحرب خدعة ، فعبرت الميناء فامتلأ الثغر بها خيرا ، فكفتهم إلى أن قدمت عليهم تلك البطش الثلاث المصرية ، وكانت البلد يوجد بها برجان يقال لأحدهما برج الديان ، فاتخذت الفرنج بطشة عظيمة لها خرطوم وفيه محركات ، إذا أرادوا أن يضعوه على شىء من الأسوار والأبرجة قلبوه فوصل إلى ما أرادوا ، فعظم أمر هذه البطشة على المسلمين ، ولم يزالوا فى أمرها محتالين ، حتى أرسل الله عليها شواظا من نار فأحرقها وأغرقها ، وذلك أن الفرنج أعدوا فيها نفطا كثيرا وحطبا جزلا ، وأخرى خلفها فيها حطب محض ، فلما أراد المسلمون المحافظة على الميناء أرسلوا النفط على بطشة الحطب فاحترقت وهى سائرة بين بطش المسلمين ، واحترقت الأخرى ، وكان فى بطشة أخرى لهم مقاتلة تحت قبو قد أحكموه فيها ، فلما أرسلوا النفط على برج الديان انعكس الأمر

عليهم بقدرة الله تعالى ، وذلك لشدة الهواء تلك الليلة ، فما تعدت النار بطشتهم فاحترقت ، وتعدى الحريق إلى الأخرى فغرقت ، ووصل إلى بطشة المقاتلة فتلفت ، وهلك من فيها ، فأشبهوا من سلف من أهل الكتاب من الكافرين فى قوله تعالى : ﴿ يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين ﴾[1] .

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣٣٧ ، ٣٨ .

الجـــزء الثامــن

- صلاح الدين إسلام يتحرك على الأرض .
- هذه هي سماحة الإسلام يا أعداء الإسلام .

أولا : وقد كان للمسلمين أشخاص يدخلون إلى خيام الفرنج فيحملون ما يجدون حتى أنهم كانوا يأخذون الرجال ، فاتفق أن بعضهم أخذ صبيا رضيعا من مهده ابن ثلاثة أشهر ، فوجدت عليه أمه وجدا شديدا ، واشتكت إلى ملوكهم فقالوا لها : إن سلطان المسلمين رحيم القلب ، وقد أذن لك أن تذهبى إليه فتشتكى أمرك إليه ، قال العماد : فجاءت إلى السلطان فأنهت إليه حالها ، فرق لها رقة شديدة حتى دمعت عينه . ثم أمر بإحضار ولدها ، فإذا هو قد بيع فى السوق ، فرسم بدفع ثمنه إلى المشترى ، ولم يزل واقفا حتى جىء بالغلام ، فأخذته أمه ، وأرضعته ساعة وهى تبكى من شدة فرحها وشوقها إليه ، ثم أمر بحملها إلى خيمتها على فرس مكرمة ، رحمه الله تعالى وعفا عنه[1] .

ثانيا : (وبعث ملك الإنكليز إلى السلطان صلاح الدين يذكر له أن عنده جوارح قد جاء بها من البحر ، وهو على نية إرسالها إليه ، ولكنها قد ضعفت وهو يطلب دجاجا وطيرا للتقوِّى به ، فعرف أنه إنما يطلب لنفسه يلطفها به ، فأرسل إليه شيئا كثيرا من ذلك كرما ، ثم أرسل يطلب منه فاكهة وثلجا فأرسل إليه أيضا ، فلم يفد معه الإحسان ، بل لما عوفى عاد إلى شر مما كان)[2] .

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣٤٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٤٣ .

الجـــزء التاســـع

– الفرنج يحاولون اغتصاب القدس سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ولكن الله سلم .

– صلاح الدين وإخوانه يفشلون محاولة الأعداء .

– كلمة صلاح الدين فى إخوانه تكشف هدف الصليبيين من اغتصاب القدس ، ومسئولية جند الإسلام أمام الله عز وجل :

(اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته ، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم فى ذممكم معلقة ، والله – عز وجل – سائلكم يوم القيامة عنهم ، وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه عن العباد والبلاد غيركم ، فإن توليتم – والعياذ بالله – طوى البلاد وأهلك العباد ، وأخذ الأموال والأطفال والنساء ، وعبد الصليب فى المساجد ، وعزل القرآن منها والصلاة ، وكان ذلك كله فى ذممكم ، فإنكم أنتم الذين تصديتم لهذا كله ، وأكلتم مال المسلمين لتدفعوا عنهم عدوهم وتنصروا ضعيفهم ، فالمسلمون فى سائر البلاد متعلقون بكم ، والسلام)[1] .

– صلاح الدين يوسف يستجيب للصليبيين ويعقد معهم هدنة عام ٥٨٨ هـ .

– سبب الهدنة : (ملك انكلترا « انجلترا » لما رأى إجماع العساكر ، وأنه لا يمكنه مفارقة ساحل البحر ، وليس بالساحل للمسلمين بلد يطمع فيه ، وقد طالت غيبته عن بلاده ، أرسل إلى صلاح الدين فى الصلح) .

– أصحاب صلاح الدين وجماعة من الأمراء أشاروا بالإجابة إلى الصلح ،

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣٤٨ .

وعرفوه ما عند العسكر من الضجر والملل .

- (لما انفصل أمر الهدنة أذن صلاح الدين للفرنج فى زيارة بيت المقدس)[1] .

- صلاح الدين يعود إلى دمشق مرورا بالقدس .

- انتهاز فرصة الهدنة لإصلاح أحوال البلاد الداخلية .

- عزم صلاح الدين على الحج .

- القاضى الفاضل ينهاه عن ذلك (خوفا من استيلاء الفرنج عليها ، ومن كثرة المظالم بها، وفساد الناس والعسكر وقلة نصحهم ، وأن النظر فى أحوال المسلمين خير لك عامك هذا ، والعدو مخيم بعد بالشام ، وأنت تعلم أنهم يهادنون ليتقووا ويكثروا ، ثم يمكروا ويغدروا)[2] .

ومن هذه الرسالة ، يبدو فقه العلماء بفروض الأوقات ، وفرض الوقت حينذاك هو المرابطة فى مواجهة الأعداء ومجاهدتهم ، ويبدو أيضا حرص العلماء على إسداء النصيحة للحكام دون خوف أو وجل ، ابتغاء مرضاة الله .

فسمع السلطان منه وشكر نصحه ، وترك ما عزم عليه ، وكتب به إلى سائر الممالك ، واستمر مقيما بالقدس جميع شهر رمضان فى صيام وصلاة وقرآن .

وفى هذا صورة صادقة لتواضع الحكام المسلمين ، واستجابتهم لنصائح العلماء ، والقيام بما أوجبه الله سبحانه وتعالى عليهم .

فلما كان فى خامس شوال ركب السلطان فى العساكر ، فبرز من القدس قاصدا دمشق ، واستناب على القدس عز الدين جوردبك ، وعلى قضائها بهاء الدين بن يوسف بن رافع بن تميم الشافعى ، فاجتاز على وادى الجيب وبات على بركة الداوية ، ثم أصبح فى نابلس ، فنظر فى أحوالها ، ثم ترحل عنها ، فجعل يمر بالقلاع والحصون والبلدان فينظر فى أحوالها .

---

(١) الكامل فى التاريخ ، جـ ٩ ، ص ٢٢١ - ٢٢٢ ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣٥٠ .
(٢) البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣٥١ .

الجــــزء العاشـــــر

– وفاة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذى فى صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة :

(استهلت هذه السنة وهو فى غاية الصحة والسلامة ، وخرج هو وأخوه العادل إلى الصيد شرقى دمشق ، وقد اتفق الحال بينه وبين أخيه أنه بعدما يفرغ من أمر الفرنج « أى تحرير بلاد الشام من الصليبيين » يسير هو لبلاد الروم ، ويبعث أخاه إلى بغداد ، فإذا فرغا من شأنهما سارا جميعا إلى بلاد أذربيجان ، وبلاد العجم)[1] .

ولكن ليس كل ما يتمنى المرء يدركه ...

(فقد مرض صلاح الدين ، واشتد به الحال ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر ، واستدعى أبا جعفر أمام الكلاسة ليبيت عنده يقرأ القرآن ويلقنه الشهادة إذا جد به الأمر ، فذكر أنه كان يقرأ عنده وهو فى الغمرات فقرأ : ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة ﴾ فقال : وهو كذلك صحيح . فلما أذن الصبح جاء القاضى الفاضل ، فدخل عليه وهو فى آخر رمق ، فلما قرأ القارىء : ﴿ لا إله إلا هو عليه توكلت ﴾ ، تبسم وتهلل وجهه ، وأسلم روحه إلى ربه سبحانه ، ومات رحمه الله وأكرم مثواه ، وجعل جنات الفردوس مأواه ، وكان له من العمر سبع وخمسون سنة ، لأنه ولد بتكريت فى شهور سنة ثنتين وثلاثين وخمسمائة ، رحمه الله ، فقد كان ردءا للإسلام ، وحرزا وكهفا من كيد الكفرة اللئام ، وذلك بتوفيق الله له)[2] .

---

(١) وفى هذه خطة حكيمة لتوحيد بلاد العالم الإسلامى ، مع استمرار راية الجهاد مرفوعة ، حتى يكون الدين لله . (البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢ ؛ الكامل فى التاريخ ، جـ ٩ ، ص ٢٢٥ .

(٢) البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٣ .

هكذا خرج صلاح الدين من الدنيا ، نموذجا للقائد المسلم المجاهد الذى ندعوا الله أن يرزق الأمة المسلمة أمثاله ، يقول ابن الأثير :

(وكان رحمه الله كريما حليما ، حسن الأخلاق ، متواضعا صبورا على ما يكره ، كثير التغافل عن ذنوب أصحابه ، يسمع من أحدهم ما يكره ولا يعلمه بذلك ، ولا يتغير عليه . وبلغنى أنه كان جالسا وعنده جماعة ، فرمى بعض المماليك بعضا بسر موز فأخطأته ووصلت إلى صلاح الدين فأخطأته ، ووقعت بالقرب منه ، فالتفت إلى الجهة الأخرى يكلم جليسه ليتغافل عنها . وطلب مرة الماء فلم يحضر ، وعاود الطلب فى مجلس واحد خمس مرات فلم يحضر ، فقال : يا أصحابنا والله قد قتلنى العطش فأحضر الماء فشربه ولم ينكر التوانى فى أحضاره)[١] .

وقال العماد : (لم يترك فى خزانته من الذهب سوى جرام واحد – أى دينار واحد – صوريا ، وستة وثلاثين درهما ، ولم يترك دارا ولا عقارا ولا مزرعة ولا بستانا ولا شيئا من أنواع الأملاك . هذا وله من الأولاد سبعة عشر ذكرا وابنة واحدة)[٢] .



---

(١) الكامل فى التاريخ ، ج ٩ ، ص ٢٢٥ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٢٢٦ . البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٤ .

الفصــــل الســـــادس

رجال خلفوا صلاح الدين بخير
وساروا على الطريق لإتمام تحرير أرض الإسلام

لقد وفق الله سبحانه وتعالى صلاح الدين الأيوبى قبل موته إلى كسر شوكة الهجمة الصليبية على بلاد الشام ، حقيقة أن الصليبيين قد استمروا مائة سنة أخرى بعد وفاته فى بقاع متفرقة من بلاد الشام ، إلا أن جهود عماد الدين زنكى ونور الدين محمود وجهت طعنات نجلاء فى جسد الهجمة الصليبية الأوربية ، وكانت بداية النهاية للهجمة الشرسة على بلاد الشام وغيرها من بلاد المسلمين .

يقول ابن كثير :

(انقضت مدة الهدنة التى كان عقدها صلاح الدين للفرنج سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة فأقبلوا بحدهم وحديدهم ، فتلقاهم الملك العادل أبو بكر بعد صلاح الدين بمرج عكا فكسرهم وغنمهم ، وفتح يافا عنوة ، ولله الحمد والمنة ، وقد كانوا كتبوا إلى ملك الألمان يستنهضونه لفتح بيت المقدس فقدر الله هلاكه سريعا ، وأخذت الفرنج فى هذه السنة بيروت من نائبها عز الدين شامة من غير قتال ولا نزال)[1] .

(وجرت خطوب كثيرة بينهم وبين العادل ، ففى كلها يستظهر عليهم ، ويكسرهم ، ويقتل خلقا من مقاتلتهم ، ولم يزالوا كذلك معه حتى طلبو الصلح والمعاهدة ، فعاقدهم على ذلك) .

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ١٤ ، ١٥ .

ومن خلال هذا العرض الذى قدمه ابن كثير ، يتضح عدة أمور :

أولا : أن أعداء الإسلام يطلبون الهدنة ليتقووا بها على المسلمين ، من إعداد للعتاد وحشد للمقاتلة ، كما قال القاضى الفاضل فى رسالة إلى صلاح الدين – رحمة الله عليهما –[1] .

ثانيا : بركة الجهاد فى سبيل الله ، فهو السبيل إلى عزة المسلمين . وصدق رسول الله ﷺ القائل : « إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف »[2] .

ثالثا : لقد كان وراء هذا الصمود العظيم ، توفيق الله سبحانه وتعالى ، ثم توجيهات العلماء الفقهاء الصادقين . فها هو القاضى الفاضل يكتب من مصر إلى الملك العادل بدمشق يحثه على قتال الفرنج ، ويشكره على ما هو بصدده من محاربتهم ، وحفظ حوزة الإسلام . وهكذا يجب أن يكون العلماء ، وأن الأمة الإسلامية لم تُؤْذَ فى حاضرها إلا بسبب ندرة العلماء الصادقين .

رابعا : رغم أن الملك العادل قد هادن الفرنجة إلا أنهم قد عادوا مرة أخرى عام ٥٩٤ هـ ، وحاصروا إحدى حصون الشام (تينين) .

الفرنج (الصليبيون الأوربيون) يركزون هجماتهم لاغتصاب مصر

لقد أدرك الفرنج ، كما بينا ، أن مصر تشكل مركز الثقل فى الصراع الدائر بينهم وبين بلاد العالم الإسلامى ، ولذلك نراهم يركزون هجماتهم على مصر لاغتصابها ، ولكن الله سلم .

ففى سنة خمس عشرة وستمائة ، هاجم الفرنج دمياط ، وحاصروها أربعة أشهر ، (والملك الكامل يقاتلهم ويمانعهم ، فتملكوا برج السلسلة وهو كالقفل على ديار مصر ، فلما ملكت الفرنج هذا البرج شق ذلك على المسلمين ، وحين وصل الخبر إلى الملك العادل وهو بمرج الصفر ، تأوه لذلك تأوها شديدا ، ودق

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣٥١ .

(٢) رواه مسلم .

بيده على صدره أسفا وحزنا على المسلمين ، وبلادها ومرض من ساعته مرض الموت لأمر يريده الله عز وجل)[1] .

(ولما اشتهر الخبر بموت العادل ووصل إلى أخيه الكامل وهو بثغر دمياط مرابط للفرنج ، أضعف ذلك عضد المسلمين ، وفشلوا) .

ولما استحوذ الفرنج على مدينة دمياط ، ودخلوها بالأمان (فغدروا بأهلها ، وقتلوا رجالها ، وسبوا نساءها وأطفالها ، وفجروا بالنساء ، وبعثوا بمنبر الجامع والربعات ورؤوس القتلى إلى الجزائر ، وجعلوا الجامع كنيسة)[2] .

أبناء الملك العادل سيف الدين أبو بكر يواصلون رفع راية الجهاد :

(نزل الكامل تجاه الفرنج يمانعهم من دخول القاهرة بعد أن كان يمانعهم من دخول الثغر ، وكتب إلى إخوانه يستحثهم ويستنجدهم ، ويقول : الوحا الوحا العجل ، أدركوا المسلمين قبل أن تملك الفرنج جميع أرض مصر) .

واستجاب المسلمون لنداء مصر المسلمة : (فأقبلت العساكر الإسلامية إليه من كل مكان ، وكان أول من قدم عليه أخوه الأشرف – بيض الله وجهه – ثم المعظم)[3] .

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٧٩ . وقد توفى فى سابع جمادى الآخرة ، وقد كان الملك سيف الدين أبو بكر بن أيوب بن شادى من خيار الملوك وأجودهم سيرة ، دَيِّناً عاقلا صبورا وقورا ، أبطل المحرمات والخمور والمعازف من مملكته كلها ، وقد كانت ممتدة من أقصى بلاد مصر واليمن والشام والجزيرة إلى همدان كلها ، أخذها بعد أخيه صلاح الدين ، سوى حلب ، فإنه أقرها بيد ابن أخيه الظاهر غازى ؛ لأنه زوج ابنته صفية الست خاتون . وكان العادل حليما صفوحا صبورا على الأذى كثير الجهاد بنفسه ومع أخيه . حضر معه مواقفه كلها أو أكثرها فى مقاتلة الفرنج ، وكانت له فى ذلك اليد البيضاء ، وكان ماسك اليد ، وقد أنفق فى عام الغلاء بمصر أموالا كثيرة على الفقراء ، وتصدق على أهل الحاجة من أبناء الناس وغيرهم شيئا كثيرا جدا ، ثم إنه كفن فى العام الثانى من بعد عام الغلاء فى الفناء مائة ألف إنسان من الغرباء والفقراء ، وكان كثير الصدقة فى أيام مرضه حتى كان يخلع جميع ما عليه ويتصدق به وبمركوبه ...) .

(٢) البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٨٣ – ٨٤ ؛ الكامل فى التاريخ ، جـ ٩ ، ص ٣١٥ – ٣١٦ .

(٣) البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٨٠ ، وكان للملك العادل من الأولاد جماعة ، محمد الكامل صاحب مصر ، وعيسى المعظم صاحب دمشق ، وموسى الأشرف صاحب الجزيرة ، وخلاط وحران وغير ذلك ، والأوحد أيوب مات قبله ، والفائز إبراهيم ، والمظفر غازى صاحب الرها ، والعزيز عثمان ، والأمجد حسن وهما شقيقا المعظم ، والمقيت محمود ، والحافظ أرسلان صاحب جعبر ، والصالح إسماعيل ، والقاهر =

وقد واصل هؤلاء القادة المسلمون الجهاد ، وقد وفقهم الله إلى طرد الفرنج من دمياط سنة ثمان عشرة وستمائة .. (بعد أن حصروهم وأجهدوهم فأثابوا إلى المصالحة)[1] .

دروس وعبر :

إن دراسة أحداث هذه الفترة تبرز لنا العديد من الدروس المستفادة :

أولا : أن أعداء الأمة المسلمة نهازون للفرص ، فها هم قد انتهزوا فرصة موت الملك العادل ، وقد انتابت الأمة حالةٌ من الحزن العميق ، والقلق والحيرة ، نتيجة موت قائد مسيرتها الجهادية ، لتحقيق مخططهم . ومن هنا تظهر أهمية تعالى الأمة على أحزانها ، وصبرها وثباتها فى مواجهة أعدائها .

ثانيا : أهمية قيادة الأمة بالعقيدة الإسلامية الصحيحة ، ويدخل فى ذلك ضرورة إعداد الأشخاص الذين يرتبطون بالله ، ويقدرون – بفضل الله – على تولى موقع القيادة فى حالة غياب القائد أو وفاته : « من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد اللهَ فإن اللهَ حىٌّ لا يَمُوت » .

ثالثا : أن اتحاد شعوب الأمة الإسلامية وزعمائها فى مصر ودمشق والجزيرة قد أدى إلى تضييق الخناق على الفرنج فى مصر ، وطردهم منها بعد ثلاث سنوات ، ومن هنا تظهر أهمية وحدة هذه الأقطار .

رابعا : أهمية الجهاد فى سبيل الله ، وهو الوسيلة الوحيدة لإجهاض مخططات أعداء الأمة الإسلامية ، فها هو الملك المعظم عيسى حاكم بلاد الشام يصدر أمرا إلى نائبه فى دمشق ليحرض الناس على الجهاد : (وأريد أن تحرض الناس على الجهاد وتعرفهم ما جرى على إخوانهم أهل دمياط من قبل الكفرة أهل

إسحاق ، ومجير الدين يعقوب ، وقطب الدين أحمد ، وخليل وكان أصغرهم ، وتقى الدين عباس وكان آخرهم وفاة ، بقى إلى سنة ستين وستمائة ، وكان له بنات أشهرهن الست صفية خاتون زوجة الظاهر غازى صاحب حلب ، وأم الملك العزيز والد الناصر يوسف الذى ملك دمشق ، وإليه تنسب الناصريتان إحداهما بدمشق والأخرى بالسفح وهو الذى قتله هولاكو . البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٨٠ .

(١) الكامل فى التاريخ ، ج ٩ ، ص ٣١٧ – ٣١٨ ؛ البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٩٥ .

العناد) . وهكذا يتضح لنا معنى حديث رسول الله - ﷺ -: « مثل المؤمنين في تَوَادِّهم وتَرَاحُمِهِم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

خامسا : حرص الصليبيين الأوربيين (الفرنج) على اغتصاب مصر ، رغم أنهم قد حاولوا ذلك مرات عديدة وباءوا بالفشل :

ففى سنة سبع وأربعين وسبعمائة ، هجمت الفرنج مرة أخرى على دمياط واستحوذوا على الثغر ، وقتلوا خلقا كثيرا من المسلمين ، وقد قيض الله لمصر فى هذه المحنة ، سلطانا مسلما هو الملك الصالح أيوب الذى وقف سَدًّا منيعاً فى وجه هذه الهجمة الأوربية الصليبية الشرسة ، وشاء الله أن يموت هذا السلطان وهو مرابط فى ليلة النصف من شعبان بالمنصورة ، وأخفت جاريته أم خليل المدعوة (شجرة الدر) خبر موته ، وأظهرت أنه مريض لا يوصل إليه ، حتى عاد ابنه الملك توران شاه من الثغر الذى كان يرابط عليه ببلاد الشام (حصن كيفا) : « فركب فى عصائب الملك وقاتل الفرنج حتى كسرهم وطهر البلاد من رجسهم ، ووقع لويس التاسع وبعض الأمراء الصليبيين أسرى فى أيدى أبناء مصر المسلمة »[1] .

والشيء الذى يَلْفِتُ النظر هنا ، أن يدا آثمة قد امتدت - عشية النصر - لتغتال القائد المسلم[2] ، المجاهد (توران شاه) ، الذى كان على يديه ، كسر شوكة الصليبيين ، وتحرير مصر من كيدهم .

فمن الذى اغتاله ؟ هل هى اليد التى اغتالت عماد الدين زنكى وهو يحاصر حصن جعبر ؟؟ والتى حاولت أن تغتال نور الدين محمود ؟؟ وصلاح الدين يوسف ؟

إن المؤامرات التى حصلت ضد هؤلاء الحكام المسلمين المجاهدين ، تجعل ذلك الاحتمال كبيرا .

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ١٧٧ ، ١٧٨ .

(٢) يذكر ابن كثير : (وكان كريما حييا دينا) ، جـ ١٣ ، ص ١٩٦ .



الفصـــــل السابـــع

تمهيد :

اقتران الهجمة الصليبية على بلاد الشام ، والجزيرة ومصر ، بالهجمة التتارية الكافرة التى اجتاحت العالم الإسلامى منذ سنة سبع عشرة وستمائة :

يقول الإمام الحافظ : (وفى هذه السنة عمّ البلاء وعظم العزاء بجنكيز خان المسمى بتموجين – لعنه الله ومن معه من التتار قبحهم الله أجمعين – واستفحل أمرهم ، واشتد إفسادهم من أقصى بلاد الصين إلى أن وصلوا إلى العراق ومن حولها حتى انتهوا إلى أربل وأعمالها ، فملكوا فى سنة واحدة – وهى هذه السنة – سائر الممالك إلا العراق والجزيرة والشام ومصر ، وبالجملة فلم يدخلوا بلدا إلا قتلوا جميع من فيه من المقاتلة والرجال ، وكثيرا من النساء والأطفال ، وأتلفوا ما فيه بالنهب إن احتاجوا إليه ، وبالحريق إن لم يحتاجوا إليه ، حتى كانوا يجمعون الحرير الكثير الذى يعجزون عن حمله فيطلقون فيه النار وهم ينظرون إليه ، ويخربون المنازل وما عجزوا عن تخريبه يحرقوه ، وأكثر ما يحرقون المساجد والجوامع ، وكانوا يأخذون الأسارى من المسلمين فيقاتلون بهم ويحاصرون بهم ، وإن لم ينصحوا فى القتال قتلوهم)[١] .

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٨٦ – ٨٧ .

الجـــزء الأول

– الرزايا تجتمع على أرض الرافدين والجزيرة وبلاد الشام ومصر .

– جحافل التتار تجتاح البلاد وتنزل بأهلها أسوأ أنواع النكال منذ عام ٦٥٥ هـ .

– إسقاط الخلافة وقتل الخليفة المستعصم بالله عام ٦٥٦ هـ .

– لم ينج من التتار سوى (أهل الذمة) من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم وإلى دار الوزير ابن العلقمى الرافضى .

– الله سبحانه يقيض القائد المسلم الملك المظفر قطز بن عبد الله سيف الدين التركى لإجهاض هذه الهجمة التتارية الشرسة ، التى استهدفت الأمة المسلمة ودينها فى عين جالوت[1] .

لقد هاج التتار بقيادة هولاكو عاصمة الخلافة الإسلامية ، بغداد ، فى سنة ست وخمسين وستمائة وأنزل بها وبأهلها أسوأ أنواع القتل والدمار ، ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إلى دار الوزير ابن العلقمى الرافضى وطائفة من التجار ... وكان الوزير ابن العلقمى قبل هذه الحادثة يجتهد فى صرف الجيش[2] وإسقاط اسمهم من الديوان ، فكانت العساكر فى آخر أيام المستنصر قريبا من مائة ألف مقاتل ، منهم من الأمراء من هو كالملوك الأكابر

---

(١) الكامل فى التاريخ ، جـ ٩ ، ص ٣٢٩ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٨٢ ، ١٨٢ ، ١٩٦ ، ٢٠٠ .

(٢) وهنا تظهر خطورة صرف الجيوش الإسلامية عن مهامها القتالية ، لتكون على أهبة الاستعداد للذود عن الإسلام والمسلمين إذا ما جد الجد .

الأكاسر ، فلم يزل يجتهد فى تقليلهم إلى أن لم يبق سوى عشرة آلاف ، ثم كاتب التتار وأطمعهم فى أخذ البلاد ، وسهل عليهم ذلك ، وحكى لهم حقيقة الحال ، وكشف لهم ضعف الرجال ، وذلك كله طمعا فى أن يزيل السُنَّة بالكلية ، وأن يظهر البدعة الرافضة[1] ، وأن يقيم خليفة من الفاطميين ، وأن يبيد العلماء المفتين[2] .

وفى سنة ثمان وخمسين وستمائة (دخل جيش المغول صحبة ملكهم هولاكو خان ، وجازوا الفرات على جسور عملوها ، ووصل إلى حلب فى ثانى صفر من هذه السنة ، فحاصروها سبعة أيام ثم افتتحوها بالأمان ثم غدروا بأهلها وقتلوا منها خلقا لا يعلمهم إلا الله – عز وجل – ونهبوا الأموال وسبوا النساء والأطفال ..... وكان نائبها الملك توران شاه بن صلاح الدين ، وكان عاقلا حازما ، لكن لم يوافقه الجيش على القتال)[3] .

(وأرسل هولاكو وهو نازل على حلب جيشا من أمير من كبار دولته يقال له : كتبغا نوين فوردوا دمشق فى آخر صفر ، فأخذوها سريعا من غير ممانعة ولا مدافعة) ... وسلمت البلد والقلعة إلى أمير يقال له : ابل سيان ، وكان – لعنه الله – معظما لدين النصارى فاجتمع به أساقفتهم وقسوسهم ، فعظمهم جدا ، وزار كنائسهم[4] ، فصارت لهم دولة وصولة بسببه ، وذهب طائفة من النصارى إلى هولاكو ، وأخذوا معهم هدايا وتحفا ، وقدموا من عنده ومعهم أمان فرمان من جهته ، ودخلوا من باب توما ومعهم صليب منصوب يحملونه على رؤوس الناس ، وهم ينادون بشعارهم ويقولون : ظهر الدين الصحيح دين المسيح ، ويذمون دين الإسلام وأهله ، ومعهم أوانى فيها خمر ، لا يمرون على باب مسجد إلا رشوا عنده خمرا ، وقماقم ملآنة خمرا يرشون منها على وجوه الناس

---

(١) وهذا يبين لنا خطورة تسلل العناصر العميلة إلى جهاز الحكم فى الدولة الإسلامية ، لتحقيق مخطط الأعداء ، والمسلمون لا يشعرون ، ولا يأبهون ، وقد يكونوا متورطين .

(٢) البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٢٠٠ – ٢٠٢ ، وهذا يشير إلى أن عناصر الخيانة قد وصلت إلى أعلى منصب وزارى فى الدولة ، على عهد أحد خلفاء بنى العباس ، فما هو السبب ؟؟

(٣) البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٢١٨ ؛ وهذا دليل على أن أهل الكفر لا عهد لهم .

(٤) البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٢١٩ .

وثيابهم ، ويأمرون كل من يجتازون به فى الأزقة والأسواق أن يقوم لصليبهم)[1] .... اتفق وقوع هذا كله فى العشر الأخير من رمضان من هذه السنة .

(فما مضت سوى ثلاثة أيام ، حتى جاءت البشارة بنصرة المسلمين على التتار بعين جالوت) ، وذلك أن الملك المظفر قطز صاحب مصر لمّا بلغه ما كان من أمر التتار بالشام المحروسة ، وأنهم عازمون على الدخول إلى ديار مصر بعد تمهيد ملكهم بالشام بادرهم قبل أن يبادروه ، وبرز إليهم وأقدم عليهم قبل أن يقدموا عليه ، فخرج فى عساكره وقد اجتمعت الكلمة عليه ، حتى انتهى إلى الشام ، واستيقظ له عسكر المغول ، وعليهم (كتبغا نوين) ، وكان إذ ذاك فى البقاع فاستشار الأشرف صاحب حمص والمجير ابن الزكى ، فأشاروا عليه : بأنه لا قبل له بالمظفر حتى يستمد هولاكو ، فأبى إلا أن يناجزه سريعا ، فساروا إليه وسار المظفر إليهم ، فكان اجتماعهم على عين جالوت يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان ، فاقتتلوا قتالا عظيما ، فكانت النصرة - ولله الحمد - للإسلام وأهله ، فهزمهم المسلمون هزيمة هائلة ، وقتل أمير المغول كتبغا نوين وجماعة من بيته ، وقد قيل : إن الذى قتل كتبغا نوين الأمير جمال الدين آقوش الشمسى ، وأتبعهم الجيش الإسلامى يقتلونهم فى كل موضع ، وقد قاتل الملك المنصور صاحب حماه مع الملك المظفر قتالا شديدا ، وكذلك الأمير فارس الدين أقطاى المستعرب ، وكان أتابك العسكر ، وقد أسر من جماعة كتبغا نوين الملك السعيد بن العزيز بن العادل فأمر المظفر بضرب عنقه ، واستأمن الأشرف صاحب حمص ، وكان مع التتار ، وقد جعله هولاكو خان نائبا على الشام كله ، فأمنه الملك المظفر ورد إليه حمص ، وكذلك رد حماه إلى المنصور وزاده المعرة وغيرها ، وأطلق سلمية للأمير شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع أمير العرب ، واتبع الأمير بيبرس البندقدارى وجماعة من الشجعان التتار يقتلونهم فى كل مكان ، إلى أن وصلوا خلفهم إلى حلب ، وهرب من بدمشق منهم يوم الأحد السابع

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٢١٩ - ٢٢٠ ، وصدق الله العظيم : ﴿ لا يرقبون فى مؤمن إلاً ولا ذمّة ﴾ ؛ ﴿ إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ﴾ .

والعشرين من رمضان ، فتبعهم المسلمون من دمشق يقتلون فيهم ، ويستفكون الأسارى من بين أيديهم ، وجاءت بذلك البشارة – ولله الحمد على جبره إياهم بلطفه – فجاوبتها دق البشائر من القلعة ، وفرح المؤمنون بنصر الله فرحا شديدا ، وأيد الله الإسلام وأهله تأييدا ، وكبت الله النصارى واليهود والمنافقين وظهر دين الله وهم كارهون)[1] .

وفى غمرة النصر ، قتل القائد المجاهد السلطان الملك المظفر قطز لمّا عاد قاصدا مصر ، فمن الذى قتله ؟؟ هل هم الصليبيون ؟ هل هم الشيعة الباطنية ؟ الذين قتلوا عماد الدين زنكى ؟ ونور الدين محمود ؟ وحاولوا قتل صلاح الدين يوسف ؟؟

وبعد مقتل السلطان قطز[2] تولى المسئولية من بعده الملك الظاهر بيبرس البندقدارى[3] .

(وكان هولاكو خان لما بلغه ما جرى على جيشه من المسلمين بعين جالوت أرسل جماعة من جيشه الذين معه كثيرين ليستعيدوا الشام من أيدى المسلمين فحيل بينهم وبين ما يشتهون ، فرجعوا إليه خائبين خاسرين ، وذلك أنه نهض إليهم الهزبر الكاسر والسيف الباتر الملك الظاهر ، فقدم دمشق وأرسل

---

(١) البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٢٠ – ٢٢١ .

(٢) يقول عنه ابن كثير : (الملك المظفر قطز بن عبد الله سيف الدين التركى ، أحد مماليك الصالح أيوب بن الكامل ، بويع فى ذى القعدة سنة سبع وخمسين وستمائة ، ثم سار إلى التتار فجعل الله على يديه نصرة الإسلام كما ذكرنا ، وقد كان شجاعا بطلا كثير الخير ناصحا للإسلام وأهله ، وكان الناس يحبونه ويدعون له كثيرا . ذكر عنه أنه لما كان يوم المعركة بعين جالوت قتل جواده ولم يجد أحدا فى الساعة الراهنة من الوشاقية الذين معهم الجنائب ، فترجل وبقى واقفا على الأرض ثابتا ، والقتال عمال فى المعركة ، وهو فى موضع السلطان من القلب ، فلما رآه بعض الأمراء ترجل عن فرسه وحلف على السلطان ليركبنها فامتنع وقال لذلك الأمير : ما كنت لأحرم المسلمين نفعك . ولم يزل كذلك حتى جاءته الوشاقية بالخيل فركب ، فلامه بعض الأمراء وقال : يا خوند لم لا ركبت فرس فلان ؟ فلو أن بعض الأعداء رآك لقتلك وهلك الإسلام بسببك ، فقال : أما أنا فكنت أروح إلى الجنة ، وأما الإسلام فله رب لا يضيعه ، وقد قتل فلان وفلان وفلان حتى عد خلقا من الملوك ، فأقام للإسلام من يحفظه غيرهم ، ولم يضيع الإسلام) ؛ البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٢٥ .

(٣) البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

العساكر فى كل وجه لحفظ الثغور والمعاقل بالأسلحة ، فلم يقدر التتار على الدنو إليه ، ووجدوا الدولة قد تغيرت ، والسواعد قد شمرت ، وعناية الله بالشام وأهله قد حصلت ، ورحمته بهم قد نزلت ، فعند ذلك نكصت شياطينهم على أعقابهم ، وكروا راجعين القهقرى ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات)[1] .

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٢٢٣ .

دروس وعبر :

ما أشبه اليوم بالأمس البعيد والقريب ، فأعداء الأمة المسلمة ، هم هم ، لم يتغيروا ، ولم يتبدلوا ، إنَّهم الشيوعيون الذين ورثوا الحقد التتارى اللعين على الإسلام والمسلمين ، فهم الذين اغتصبوا الأقاليم الإسلامية : الأورال ، استراخان وسيبريا والقرم والقوقاز والتركستان ، أى الشمال الشرقى من العالم الإسلامى أجمع[1] .

ولا زالوا يدمرون ويقتلون أبناء الإسلام فى أفغانستان لاغتصابها ، والإجهاز على آخر صوت يقول : لا إله إلا الله .

إنَّهم الأوربيون الذين اغتصبوا أرض الإسلام فى بلاد الشام ، والشمال الأفريقى ، وأفريقية وغيرها ، وهم الذين مهدوا الطريق أمام اليهود لاغتصاب أرض فلسطين ، ولعملائهم للسيطرة على الكثير من أرض الشام .

إنَّهم الفرق الباطنية : الإسماعيلية والنصيرية والدروز والنصارى الذين كانوا عونا للهجمة التتارية على بلاد الإسلام ، وهم الذين يعاونون اليهود وأوَربا الصليبية اليوم لاغتصاب ديار الإسلام فى بلاد الشام ، وغيرها من بلاد الإسلام .

الفارق بين الأمس واليوم ، بالأمس كان المسلمون فى عافية من دينهم ، وكانوا يدركون عدوهم ويجاهدونه أما اليوم ، فقد تخلى الكثير من أبناء الإسلام عن دينهم ، وصاروا ذيولا ، وعملاء لأعدائهم من الشيوعيين والاشتراكيين وغيرهم . إن المشكلة الخطيرة التى يواجهها العالم الإسلامى اليوم ، أن الأمر قد عمّى عليه ، فلم يدرك ولم ينتبه إلى أن الاحتلال الأجنبى قد خرج من كثير من بلاد المسلمين ، وخلف وراءه أبناءً يأتمرون بأمره ، وينفذون مخططه . لذلك

---

(١) الإسلام فى وجه الزحف الأحمر ، تأليف محمد الغزالى ، المختار الإسلامى ، القاهرة .

لا عجب أن يشاهد الكثير من أبناء المسلمين اليوم يوالون أعداء الله ويعطونهم حبهم ومودتهم وولاءهم وصفقة أيديهم .

– ملة الكفر واحدة ، نلمح ذلك من تعاون الفرنج (الصليبيين الأوربيين) مع التتار ضد أبناء المسلمين . فحينما تحرك جيش مصر الإسلامية بقيادة الظاهر بيبرس باتجاه بلاد الشام (حلب) لطرد التتار ، ووصل إلى غزة ، كتب الفرنج إلى التتار ينذرونهم فرحلوا عنها مسرعين[1] .

– أن سرد الأحداث التاريخية ، يؤكد لنا أن الأعداء حريصون على زرع أقليات غير إسلامية فى بلاد العالم الإسلامى ، لإثارة المشاكل والقلاقل وليكونوا لهم عينا على بلاد الإسلام ، ولضمان عدم استقرار الأحوال فى ديار الإسلام ، ولعل ما يحدث الآن عام (١٤٠٦ هـ) فى جنوب السودان ولبنان وغيرها دليل على ما نقول .

– أن أعداء الإسلام لا أيمان لهم ، فكم من المرات أعطوا الأمان لأهل البلاد ليفتحوها ؛ وبعد ما فتحوها نكثوا أيمانهم ، وأنزلوا بالبلاد أسوأ أنواع الانتقام .

تماما كما حدث فى صبرا وشاتيلا ، حينما تعهد اليهود والعالم الغربى بالحفاظ على أبناء فلسطين على أرض لبنان ؛ على شريطة أن يخرج المقاتلون الفلسطينيون ؛ ماذا حدث ؟ لقد نكثوا أيمانهم وتعاون الكتائب واليهود فى هتك الأعراض وقتل النساء ، وإجهاض الحوامل ، والتنكيل بالشيوخ والشباب ، بل وحرصوا ويحرصون على تدمير الوجود الفلسطينى أيا كان فى أى مكان .

– أن الجهاد هو الوسيلة الوحيدة لاستنقاذ الأرض الإسلامية والعرض الإسلامى والثروة الإسلامية وإقامة دين الله فى الأرض ، فلولا خروج السلطان سيف الدين قطز مجاهدا على رأس جيش مصر الإسلامية ، ما تمكن المسلمون من إجهاض الهجمة التتارية الكافرة .

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٢٣١ .

– أن الله يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، لقد عاث التتار فى الأرض فسادا ، وتحقق لهم الفوز فى غالب معاركهم ، واجتاحوا الشرق بأكمله ، وتصوروا بعد أن سقطت الشام أمام جحافلهم ، أنه ليس أمامهم إلا مصر وبعدها يكونوا قد ملكوا أزمة الأمور ؛ وشاء السميع العليم أن تكون هزيمتهم بل مصرعهم ، وإنهاء ملكهم على يد القائد المجاهد المسلم قطز حاكم مصر .

– ومن هنا نتبين ونستيقن أنه إذا هزم المسلمون فى معركة واحدة ... فلا يعنى ذلك أن الهزيمة قد كتبت عليهم إلى الأبد ، على العكس من ذلك يعنى أنه لابد من الأخذ بالعدة وأولها الإيمان بالله ، وتوحيد الصف المسلم ، وإعداد ما فى الطوق ، وحينذاك يتنزل نصر الله – سبحانه وتعالى – وهذا ما فعله قطز وبيبرس فتحقق النصر على أيديهم .

– أن اليد الآثمة التى امتدت لتغتال القائد المجاهد قطز وهو فى أوج انتصاره ، هى نفس الأيدى التى حاولت أن تغتال محمد رسول الله – ﷺ – وهى نفس الأيدى التى اغتالت عمر وعثمان – رضى الله عنهما – وهى التى يمكن أن تمتد لتغتال الحاكم الصالح ، أو الحاكم الذى لا يعين على تنفيذ مخططات الأعداء ، وإن كانت الآجال كلها بيد الله ﴿ ما كان لنفس أن تموت إلاّ بإذن الله كتابا مؤجلا ﴾ .

☆ ☆ ☆ ☆ ☆ ☆ ☆

الجـــزء الثانـــى

الملك الظاهر ركن الدين بيبرس يجاهد الصليبيين والتتار

بعد اغتيال القائد المسلم قطز ، الذى حقق الله على يديه النصر على جموع التتار ، برز على الساحة شخصية مجاهدة ، هى شخصية السلطان ركن الدين بيبرس حاكم مصر الذى واصل جهاده ضد التتار والصليبيين فى آن واحد .

لقد اشتهر – هذا القائد – كما تحكى كتب التاريخ بالصلاح والتقوى ، واقترن عهده بتصفية معظم الجيوب الصليبية فى بلاد الشام ومصر .

واقترن عهده أيضا ، بإقامة الخلافة ، حينما نصب الحاكم بأمر الله أبى العباس خليفة سنة إحدى وستين وستمائة .

وقد خطب الخليفة العباسى بمناسبة تنصيبه خطبة هذا نصها : (الحمد لله الذى أقام لآل العباس ركنا ظهيرا ، وجعل لهم من لدنه سلطانا نصيرا ، أحمده على السراء والضراء ، وأستعينه على شكر ما أسبغ من النعماء ، وأستنصره على دفع الأعداء ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله – ﷺ وعلى آله وصحبه – نجوم الاهتداء وأئمة الاقتداء ، لا سيما الأربعة ، وعلى العباس كاشف غمة أبى السادة الخلفاء ، وعلى بقية الصحابة أجمعين ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين . أيها الناس ، اعلموا أن الإمامة فرض من فروض الإسلام ، والجهاد محتوم على جميع الأنام ولا يقوم علم الجهاد إلا باجتماع كلمة العباد ، ولا سبيت الحرم إلا بانتهاك المحارم ، ولا سفكت الدماء إلا بارتكاب الجرائم ، فلو شاهدتم أعداء الإسلام لما دخلوا دار السلام ، واستباحوا الدماء والأموال وقتلوا الرجال والأطفال ، وسبوا الصبيان والبنات ، وأيتموهم من الآباء والأمهات ، وهتكوا حرم الخلافة والحريم ، وعلت الصيحات

من هول ذلك اليوم الطويل ، فكم من شيخ خصبت شيبته بدمائه ، وكم من طفل بكى فلم يرحم لبكائه ، فشمروا عباد الله عن ساق الاجتهاد فى إحياء فرض الجهاد ، واتقوا الله ما استطعتم ﴿ واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ . فلم يبق معذرة فى القعود على أعداء الدين ، والمحاماة عن المسلمين وهذا السلطان الملك الظاهر السيد الأجل العالم العادل المجاهد المؤيد ركن الدنيا والدين ، قد قام بنصر الإمامة عند قلة الأنصار ، وشرد جيوش الكفر بعد أن جاسوا خلال الديار ، وأصبحت البيعة بهمته منتظمة العقود ، والدولة العباسية به متكاثرة الجنود ، فبادروا عباد الله إلى شكر هذه النعمة ، وأخلصوا نياتكم تنصروا ، وقاتلوا أولياء الشيطان تظفروا ، ولا يروعكم ما جرى فالحرب سجال والعاقبة للمتقين ، والدهر يومان والأجر للمؤمنين ، جمع الله على الهدى أمركم ، وأعز بالإيمان نصركم ، وأستغفر الله لى ولسائر المسلمين ، فاستغفروا إنه هو الغفور الرحيم)[1] .

السلطان ركن الدين بيبرس يواصل مسيرته الجهادية :

(جهز السلطان الظاهر عسكرا جما كثيفا إلى ناحية الفرات لطرد التتار النازلين بالبيرة ، فلما سمعوا العساكر قد أقبلت ولوا مدبرين)[2] .

(وفى سنة ثلاث وستين وستمائة خرج الملك الظاهر فى عساكره فقصد بلاد الساحل لقتال الفرنج ففتح قيسارية ومدينة أرسوف واستعادها من براثن الصليبيين)[3] .

كما انتزع الملك الظاهر صفد من بين أيدى الفرنج قهرا سنة أربع وستين وستمائة[4] .

واسترجع مدينة يافا ، وحصن الشقيف وغيرها سنة ست وستين وستمائة[5] .

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٢٣٧ - ٢٣٨ .

(٢) البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٢٤٤ ، وهذا يبين لنا أهمية دور مصر الإسلامية فى الذود عن ديار المسلمين .

(٣) البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٢٤٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٥١ .

وفى نفس السنة ، استرجع الملك الظاهر أنطاكية فى يوم السبت رابع عشر من رمضان بحول الله وقوته وتأييده ونصره[1] .

(وفى جمادى الآخرة سنة سبع وستين وستمائة رسم السلطان الملك الظاهر بإراقة الخمور وتبطيل المفسدات والخواطىء بالبلاد كلها ، وأسقط المكوس التى كانت مرتبة على ذلك)[2] .

(وفى خامس جمادى الآخرة سنة إحدى وسبعين وستمائة ، وصل السلطان معسكره إلى الفرات لأنه بلغه أن طائفة من التتار هناك فخاض إليهم نهر الفرات بنفسه وجنده وقتل من أولئك مقتلة كبيرة وخلقا كثيرا ، ثم ساق إلى ناحية البيرة ، وقد كانت محاصرة بطائفة من التتار أخرى ، فلما سمعوا بقدومه هربوا وتركوا أموالهم وأثقالهم ، ودخل السلطان إلى البيرة)[3] . وكان أول من اقتحم الفرات الأمير سيف الدين قلاوون .

وفى سنة خمس وسبعين وستمائة استعاد الملك الظاهر مدينة قيسارية فى بكرة الأحد ثانى عشر ذى القعدة[4] .

وفاة الملك الظاهر :

وقد توفى الملك الظاهر ركن الدين بيبرس صاحب البلاد المصرية والشامية والحلبية وغير ذلك ، سنة ست وسبعين وستمائة ، يقول عنه ابن كثير : (كان شهما شجاعا عالى الهمة بعيد الغور مقداما جسورا ، يشفق على الإسلام ، له قصد فى نصرة الإسلام وأهله)[5] . وكان مقتصدا فى ملبسه ومطعمه وكذلك جيشه ، وهو الذى أنشأ الدولة العباسية بعد دثورها ، وبقى الناس بلا خليفة نحوا من ثلاث سنين . وكان رحمه الله متيقظا شهما شجاعا لا يفتر عن الأعداء ليلا

---

(١) نفس المصدر السابق ، ج ١٣ ، ص ٢٥١ - ٢٥٢ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٢٥٤ ، ٢٦٠ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٢٦٣ .
(٤) نفس المصدر ، ص ٢٧١ ، ٢٧٢ .
(٥) البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٧٥ .

ونهارا ، بل هو مناجز لأعداء الإسلام وأهله ، ولم شعثه واجتماع شمله . وبالجملة أقامه الله فى هذا الوقت المتأخر عونا ونصرا للإسلام وأهله ، وشجا فى حلوق المارقين من الفرنج والتتار والمشركين . وأبطل الخمور ونفى الفساق من البلاد ، وكان لا يرى شيئا من الفساد والمفاسد إلاَّ سعى فى إزالته بجهده وطاقته[١] .

****

(١) المصدر السابق ، ص ٢٧٦ .

الجـــزء الثالـــث

الملك المنصور قلاوون يواصل مسيرة الجهاد

وفى سنة ثمان وسبعين وستمائة بويع الملك المنصور قلاوون الصالحى فى مصر وبلاد الشام[١] ، الذى واصل جهاده للفرنج والتتار[٢] .

وقد نازل التتار فى مواقع عديدة نذكر منها وقعة حمص فى سنة ثمانين وستمائة[٣] . التى كسر فيها التتار بحول الله وقوته ، وتحقق فيها النصر للمسلمين ، ونجت بلاد الشام من شرهم ؛ كما قام باسترجاع ما تبقى من معاقل الصليبيين فى بلاد الشام :

(ففى سنة أربع وثمانين وستمائة استرجع حصن المرقب ببلاد الشام ، والذى كان مضرة على المسلمين ، ولم يتفق فتحه لأحد من ملوك الإسلام لا للملك صلاح الدين ولا للملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ، وفتح حولة بانياس ، واستنقذ المنصور خلقا كثيرا من أسارى المسلمين الذين كانوا عند الفرنج ولله الحمد . ثم عاد المنصور إلى دمشق ، ثم سافرت العساكر المصرية إلى القاهرة[٤] .

(وفى سنة ثمان وثمانين وستمائة ، كان استرجاع مدينة طرابلس ، وذلك أن السلطان قلاوون قدم بالجيوش المنصورة المصرية صحبته إلى دمشق ، فدخلها فى الثالث عشر من صفر ، ثم سار بهم وبجيش دمشق وصحبته خلق كثير من

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٣٠٥ .

المتطوعة ، منهم القاضى نجم الدين الحنبلى قاضى الحنابلة ، فنازل طرابلس يوم الجمعة مستهل ربيع الأول ، وحاصرها بالمجانيق حصارا شديدا ... وفتحت طرابلس عنوة ... وقد كان لها فى أيدى الفرنج من سنة ثلاث وخمسمائة إلى هذا التاريخ . وقد كانت قبل ذلك فى أيدى المسلمين من زمن معاوية)[1] .

وقد عزم على فتح عكا وبرز إليها فعاجلته المنية فى السادس والعشرين من ذى القعدة سنة تسع وثمانين وستمائة . يقول عنه الإمام الحافظ : (كان حسن الصورة مهيبا ، عليه أبهة السلطنة ، ومهابة الملك ، تام القامة ، حسن اللحية ، عالى الهمة ، شجاعا وقورا ، سامحه الله)[2] .



---

(١) المصدر السابق ، ص ٣١٣ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٣١٧ - ٣١٨ .

الملك الأشرف خليل بن المنصور قلاوون
يطهر بلاد الشام من بقايا الجيوب الصليبية
سنة تسعين وستمائة من الهجـــرة[1]

وقد تولى مسئولية مصر وبلاد الشام بعد وفاة أبيه الملك المنصور ، وعلى يديه يسر الله – سبحانه وتعالى – استمرارية مسيرة الجهاد الإسلامية ، فقد تم استرجاع بقية ثغور الشام من أيدى الصليبيين .

ففى عهده فتحت عكا وبقية السواحل :

يقول الإمام الحافظ ابن كثير : (وفيها جاء البريد إلى دمشق فى مستهل ربيع الأول لتجهيز آلات الحصار لعكا ، ونودى فى دمشق الغزاة فى سبيل الله إلى عكا ، وقد كان أهل عكا فى هذا الحين عدوا على من عندهم من تجار المسلمين فقتلوهم وأخذوا أموالهم ، فأبرزت المجانيق إلى ناحية الجسورة ، وخرجت العامة والمتطوعة يجرون فى العجل حتى الفقهاء والمدرسين والصلحاء ، وتولى ساقها الأمير علم الدين الدويدارى ، وخرجت العساكر بين يدى نائب الشام وخرج هو فى آخرهم ، ولحقه صاحب حماة الملك المظفر ، وخرج الناس من كل صوب ، واتصل بهم عسكر طرابلس ، وركب الأشرف من الديار المصرية بعساكره قاصدا عكا ، فتوافت الجيوش هنالك ، فنازلها يوم الخميس رابع ربيع الآخر ، ونصبت عليها المجانيق من كل ناحية يمكن نصبها عليها ، واجتهدوا غاية الاجتهاد فى محاربتها والتضييق على أهلها ، واجتمع الناس بالجوامع لقراءة صحيح البخارى ، فقرأن الشيخ شرف الدين الفزارى ، فحضر القضاة والفضلاء

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣١٩ .

والأعيان) ... وصمم السلطان على الحصار .. ثم زحف يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى ... وطلع المسلمون على الأسوار مع طلوع الشمس ، ونصبت السناجق الإسلامية فوق أسوار البلد ، فولت الفرنج عند ذلك الأدبار ، وركبوا هاربين فى مراكب التجار ، وقتل منهم عدد لا يعلمه إلا الله تعالى ، وغنموا من الأمتعة والرقيق والبضائع شيئا كثيرا جدا ، وأمر السلطان بهدمها وتخريبها ، بحيث لا ينتفع بها بعد ذلك ، فيسر الله فتحها يوم جمعة ، كما أخذتها الفرنج من المسلمين فى يوم الجمعة ، وسلمت صور وصيدا قيادتهما إلى الأشرف ، فاستوثق الساحل للمسلمين ، وتنظف من الكافرين ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين) .

(وجاءت البطاقة إلى دمشق بذلك ، ففرح المسلمون ودقت البشائر فى سائر الحصون ، وزينت البلاد ليتنزه فيها الناظرون والمتفرجون ، وأرسل السلطان إلى صور أميرا فهدم أسوارها وعفا آثارها . وقد كان لها فى أيدى الفرنج من سنة ثمان عشرة وخمسمائة . وأما عكا فقد كان الملك الناصر يوسف بن أيوب أخذها من أيدى الفرنج ، ثم إن الفرنج جاءوا فأحاطوا بها بجيوش كثيرة ، ثم جاء صلاح الدين ليمانعهم عنها مدة سبعة وثلاثين شهرا ، ثم آخر ذلك استملكوها وقتلوا من كان فيها من المسلمين ، كما تقدم ذلك) .

ثم إن السلطان الملك الأشرف خليل بن المنصور قلاوون سار من عكا قاصدا دمشق فى أبهة الملك وحرمة وافرة ، وفى صحبته وزيره ابن السلعوس والجيوش المنصورة ، وفى هذا اليوم استناب بالشام الأمير علم الدين سنجر الشجاعى ، وسكن بدار السعادة ، وزيد فى إقطاعه حرستا ولم تقطع لغيره ، وإنما كانت لمصالح حواصل القلعة ، وجعل له فى كل يوم ثلثمائة على دار الطعام ، وفوض إليه أن يطلق من الخزانة ما يريد من غير مشاورة ولا مراجعة ، وأرسله السلطان إلى صيدا لأنه كان قد بقى فيها برج عَضِىّ ، ففتحه ودقت البشائر بسببه ، ثم عاد سريعا إلى السلطان فودعه ، وسار السلطان إلى الديار المصرية فى أواخر رجب ، وبعثه إلى بيروت ليفتحها فسار إليها ففتحها فى أقرب وقت ، وسلمت عثلية وانطرطوس وجبيل . ولم يبق بالسواحل – ولله الحمد – معقل

للفرنج إلا بأيدى المسلمين ، وأراح الله منهم البلاد والعباد ، ودخل السلطان إلى القاهرة فى تاسع شعبان فى أبهة عظيمة جدا)[1] .

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٣٢٠ - ٣٢١ .

الخاتمـــة

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على إمام المجاهدين ، محمد الرسول الكريم وعلى آله وصحبه أجمعين ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، القائل :

﴿ انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ (التوبة آية ٤١) .

ونشهد أن محمداً عبد الله ورسوله ، القائل : « إذا تبايعتم بالعينة ، وأخذتم أذناب البقر ، ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذُلاًّ ، لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم » (رواه أحمد والطبرانى فى الكبير) .

اللهم صل وسلم وبارك على محمد وعلى آله وصحبه وسلم . وبعد :

فقد تتبعنا على الصفحات السابقة أحوال بلاد الشام وبعض البلاد المجاورة عبر التاريخ ، فى محاولة مِنّا لرسم معالم الطريق الذى يجب أن يسلكه المسلمون لتحرير أرض الشام وغيرها ، لإقامة حكم الإسلام فيها ؛ وقد أسفرت المحاولة عن نتائج كثيرة منها :

– إن أرض الشام ، بما فى ذلك بيت المقدس ، هى الأرض التى بارك الله فيها للعالمين ، وأنها دواما ، وفى أغلب فترات التاريخ ، كانت محكومة بنظام الإسلام وشرعه ، كما أنها كانت موطن رسالات سماوية كلها دعت إلى الإسلام .

– أن الإمامة على أرض الشام كانت للأنبياء والملوك المسلمين ، ومنهم إبراهيم واسحاق ويعقوب وداود وسليمان عليهم السلام .

– إن أول من بنى المسجد الأقصى هو آدم عليه السلام[1] ، وكان ذلك بعد

(١) أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، ذرة إبراهيم عليهم السلام والمسجد الأقصى ، ص ٣١٧ .

بناء المسجد الحرام بأربعين عاما ، وقد قام الأنبياء إبراهيم ويعقوب وسليمان عليهم السلام بعمل تجديدات وإضافات لهذا المسجد .

– إن سليمان عليه السلام نبى مسلم ، وعلى عهده وعهد أبيه ، قامت دولة إسلامية امتدت حدودها لتشمل بلاد الشام والجزيرة العربية وغيرها ، وسليمان عليه السلام قد جدد بناء المسجد الأقصى ، ولم يبن هيكلا ليهوه أو لغيره ، كما زعم المستشرقون ، ومن سار على نهجهم من أبناء العرب والمسلمين .

– إن أرض الشام بما فى ذلك بيت المقدس وغيرها من البلاد المجاورة ، قد تعرضت للغصب مرّات عديدة ، أخطرها ذلك الذى تعرضت له منذ نهاية القرن الخامس الهجرى على أيدى الأوربيين ، وذلك الذى تتعرض له الآن (بداية القرن الرابع عشر الهجرى) على أيدى اليهود الذين رمت أوروبا بهم العالم الإسلامى .

– وقد ابتليت بلاد الشام بتسلط الأعداء عليها ، فى الفترات التى ضعف فيها سلطان الإسلام على نفوس العباد ، فانطلقوا يعيثون فى الأرض فساداً ، فسلط الله عليهم بذنوبهم من لا يخاف الله ولا يرحمهم .

– إن انحراف المسلمين على أرض الشام وغيرها ، كان دواما فى أول الأمر ، يسيرا ، ثم تزداد زاوية الانحراف ، ثم يحدث السقوط ، تماماً كما حدث فى نهاية عصر الدولة العباسية ، لقد انحرف أهل الإسلام ، وهم يتصورون أنهم على شىء ، فقصروا فى القيام بواجباتهم ، حيال ربهم وأمتهم وأنفسهم ، ووقعوا فى الحرام ، وركنوا إلى الدنيا ، ونكلوا عن مجاهدة الأعداء ، واستمرأوا حياة الترفل والانكباب على الملذات ، ولذلك كان لابد وأن يضربهم الله بالذّل ، إمضاء لسنة ربانية بيّنها رسول الله محمد ﷺ : « إذا تبايعتم بالعينة ، وأخذتم أذناب البقر ، ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذُلاً ، لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم »[1] .

---

(١) صحيح ، رواه أحمد فى سنده والطبرانى فى الكبير (صحيح الجامع الصغير وزيادته) تأليف محمد ناصر الدين الألبانى ، المجلد الأول ، المكتب الإسلامى ، ط ٣ ، دمشق ١٤٠٢ هـ حديث رقم ٤١٦ .

لقد سلّط على العالم الإسلامى فى بلاد الشام ، ومصر وأرض الرافدين وتركيا ، عدوا نزعت من قلبه الشفقة والرحمة ، هو أوروبا التى تسترت بستار الصليب لكى تسفك الدم الإسلامى ، وتهتك العرض ، وتؤيم النساء ، وتيتم الأطفال .

وهنا نجد سؤالا يفرض نفسه ؟

لقد التقى معسكران ، وجهاً لوجه ، معسكر الأوروبيين الذى يبغى القضاء على كل صوت يرتفع مردداً لا إله إلا الله ، ليغتصب الأرض والعرض والثروة !

ومعسكر يرفع راية لا إله إلا الله محمد رسول الله .

والأصل أن ينتصر المعسكر الثانى ، ولكن النتيجة جاءت غير ذلك ، وعلى عكس ما كان يتصور أهل الإسلام ، والسبب واضح : أن كون لا إله إلا الله محمد رسول الله . أصبحت شعاراً لا يكفى لتحقيق النصر ، لقد نسى أبناء المسلمين أن لها مقتضيات ، ومن مقتضياتها أن تخضع الحياة بأكملها لنظام الله وشرعه ، وأن يؤمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وتظل راية الجهاد مرفوعة على الدوام ﴿ حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ﴾ .

ولذلك كان من الطبيعى أن ينتصر المعسكر الأول على المعسكر الثانى .

– لقد أدرك أعداء الإسلام ، أنه ليس من السهل التغلب على أبناء المسلمين واغتصاب ديارهم ، إلا إذا ضعف سلطان العقيدة فى نفوسهم ، لذلك لجأوا إلى أسلوب خبيث ، وهو إعداد قيادات لتقود الشعوب الإسلامية ، رافعه شعار الإسلام ، لضرب الإسلام وتمزيق الصف المسلم من الداخل .

من هذه القيادات عبيد ؟؟ المهدى ، الذى اغتصب جزءاً من جسد الدولة الإسلامية على عهد الخلافة العباسية ، زاعما أنه من سلالة فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، ومؤسسا لدولة تسمى الدولة الفاطمية ، وكان هذا المجوسى الرافضى ، كما

يقول السيوطى فى تاريخ الخلفاء[1] ، حريصا على هدم دولة الخلافة العباسية وإفساد عقيدة الأمة المسلمة فى الشمال الأفريقى ومصر وبلاد الشام ، بجعل المذهب الشيعى هو المذهب الرسمى للدولة وإجبار أهل السنة على التحول إليه ، بل إنهم قتلوا علماء أهل السنة ، وكانوا يسبون الخلفاء على منابر المساجد . كما أن حكام هذه الدولة كانت لهم سفارات متبادلة مع الأوربيين الغزاة ، الذين اغتصبوا ديار المسلمين .

والشيء الذى يدعو إلى الدهشة أن هذه الحيلة قد انطلت على كثير من المسلمين بدليل التأييد الذى لقيه الحكام العبيديون من أبناء الأمة الإسلامية . ولا يعنى ذلك أن الساحة الإسلامية قد خلت من العناصر الواعية ، الذين انتبهوا لهذا الأمر ، على العكس ، كان هنالك مدركون من العلماء العاملين ، ولكن أسلوب القهر الذى اتبعه الحكام العبيديون قد أخفت صوت الحق .

وما حدث فى غرب الدولة الإسلامية ، حدث فى شرقها ، وفى توقيت مشابه حيث ظهر القرامطة الباطنيون الذين رفعوا شعار الإسلام . والإسلام منهم براء ، وحرصوا على إسقاط دولة الخلافة العباسية ، وإفساد عقيدة أهل السنة والجماعة ، واغتيال العلماء والحكام الصالحين على امتداد رقعة كبيرة من الوطن الإسلامى ، امتدت من إيران وأرض الرافدين إلى تركيا وبلاد الشادم .

وزحفت أوروبا على العالم الإسلامى ، لتجد أمَّة مؤهلة للسقوط ورغم هذا فقد كانت الأمة المسلمة فى عافية من دينها ، فقد قيضّ الله علماء أجلاء ، وحكاماً أتقياء ، منهم : عماد الدين زنكى ونور الدين محمود ، ونجم الدين أيوب وصلاح الدين يوسف ، الذين أدركوا أن إزالة آثار هذه الهجمة الأوروبية العدوانية الشرسة يستلزم :

أولا : بناء العقيدة الصحيحة فى قلوب أبناء الأمة الإسلامية .

ثانيا : إعادة مصر وبلاد الشام إلى مذهب أهل السنة والجماعة .

---

(١) ص ٤ ؛ البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٦٧ .

ثالثا : تدعيم كيان الخلافة ؛ لأنها السياج الحامى للأمة الإسلامية .

رابعا : توحيد الصف المسلم مع تنقيته من الأعداء الذين يتسمون بأسماء المسلمين ، ويرفعون شعاراته لضرب الإسلام والمسلمين .

خامسا : الأخذ بأسباب القوة .

وحينما نجح هؤلاء القادة فى تحقيق هذه المستلزمات ، تحقق النصر بفضل الله ، وانتصر المسلمون على أعدائهم ، وتحررت بلاد الشام وغيرها من البلاد بعد قرنين من اغتصاب الأوروبيين لها .

— فى كل مرة اغتصبت القدس وأرض الشام ، كان يقيض الله سبحانه وتعالى جيلا مجاهداً ، يعمل على تحريرها من أيدى الغاصبين ، وذلك يعنى أن تحرير القدس وبلاد الشام لن يتم إلا على أيدى المسلمين المجاهدين ، ويعنى أيضا أن أسلوب المفاوضات واللجوء إلى الأمم المتحدة ومجلس الأمن ، وما تسمى بالدول الكبرى لن يُردَّ للأمة الإسلامية حقا مغتصبا، بل إنه سيؤدى إلى تكريس العدوان على أرض الإسلام .

إن الذين اغتصبوا بلاد الشام وبيت المقدس وبلاد المسلمين على مدار سبعة قرون (٦٤ قبل الميلاد — ٦١٤ ميلادية) هم الفرنج الأوربيون ، والذين اغتصبوا أرض الشام على مدار قرنين (٤٩٢ هجرية — ٦٩٠ هجرية) هم الفرنج (الأوربيون) ، والذين رموا بلاد الشام وبيت المقدس وغيرها باليهود وغيرهم ، هم الأوربيون ، وذلك يعنى أن أوربا هى التى كرّست العدوان على أرض الإسلام ، وهى التى تسانده ، حتى الآن . ولن تتخلى أوروبا عن مساندتها الظاهرة والخفية لليهود وحلفائهم ، إلا إذا أجبرت على ذلك .

إن الأمة المسلمة معاقبة بالتيه الذى عوقب به بنو إسرائيل على عهد موسى عليه السلام ، لأنهم رفضوا مجاهدة الأعداء على أرض القدس و﴿ قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين ﴾ ، والأمة الآن تقول : لا قبل لنا بمواجهة ما تسمى بالدول الكبرى ، تماماً مثلما قال جنود طالوت : ﴿ لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴾ ، ونخلص من ذلك أن هذه المحنة ستفرز — بكل تأكيد بفضل الله —

جيلا مجاهداً سيكون على يديه تحرير المقدسات الإسلامية .

إن أرض الشام بما فى ذلك بيت المقدس ، ميراث الأمة المسلمة ﴿ التى كتب الله لكم ﴾[1] ، ولذلك فإن الإمامة عليها لابد وأن تكون فى يد الأمة المسلمة ، وهذا ، لعله ، مدلول إمامة رسول الله محمد ﷺ لجميع الأنبياء والمرسلين فى بيت المقدس ليلة الإسراء والمعراج .

إن الحملات التى دفعت بها أوروبا إلى بلاد الشام وبيت المقدس وغيرها ، كانت تجد دعماً من اليهود وطائفة الإسماعيلية التى كانت تحرص على القيام باغتيال الحكام المسلمين من أهل السنة . بل كانت هناك مراسلات بين الإسماعيلية والفرنج (الأوربيين) ، فقد ذكر وليم الصورى المؤرخ ، أن راشد الدين قد أرسل وفداً إلى املريك ملك بيت المقدس عام ٥٦٩ هـ لعقد اتفاق بين الطرفين ضد نور الدين ولوح له بأنه وقومه يفكرون بالتحول إلى النصرانية ، وطلب منه مقابل ذلك إلغاء الضريبة التى فرضها فرسان الداوية من الصليبيين الأوربيين على بعض القرى الإسماعيلية[2] .

وقد ذكر الرحالة اليهودى بنيامين (ت : ٥٦٩ هـ) أن أربعة آلاف يهودى كانوا يعملون ضمن نطاق الحركة الإسماعيلية ببلاد الشام وأنهم كانوا ينتقلون معهم فى الجبال ، وأن رأس الجالوت ببغداد كان يراسل العلماء اليهود لمساندة الحركة الإسماعيلية وذلك على عهد نور الدين محمود زنكى[3] .

وفى هذا دليل على أن الفرنج (الأوربيين) كانوا يجدون دعماً من الشيعة الإسماعيلية ، واليهود لتحقيق مخططهم .

والجدير بالذكر – وهو مهم لمعرفة حقيقة ما يجرى على الساحة الآن – أن علاقة مماثلة كانت بين الإسماعيلية ويهود القدس ، وقد عثر على رسالة موجهة إلى ملك

---

(١) المائدة آية : ٢١ .

(٢) سياسة صلاح الدين فى بلاد مصر والشام والجزيرة (٥٧٠ – ٥٨٩ هـ) تأليف دريد عبد القادر نورى ، مطبعة الإرشاد بغداد ، ١٩٧٦ ، ص ٣٧٥ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٥ ، ٣٧٦ – ٣٧٧ .

بيت المقدس الفرنجى للإتفاق معه على القضاء على صلاح الدين وقواته فى مصر سنة ٥٦٩ هـ ، وكان كاتبها يهودى[١] . بل إن صلاح الدين قد أرسل رسالة إلى نور الدين محمود يخبره بإحباط مؤامرة اشترك فيها الفرنج واليهود والفاطميين (انظر الخطاب آخر الكتاب) .

لقد كان التواطؤ بين اليهود والشيعة الفاطميين كبيراً بدليل تولى اليهود بعض المناصب الهامة جداً فى عصر ما تسمى بالدولة الفاطمية التى تكاد - كما يقول ظفر الإسلام خان فى كتابه -[٢] أن اليهود هم الذين كانوا يحكمونها من وراء الخليفة » .

ومن اليهود الذين أسلموا وحصلوا على بعض الوزارات فى الدولة الفاطمية يعقوب بن كلس وصدقة بن يوسف وإبراهيم التسترى كما يقول د . فاروق عمر فوزى فى مقالته[٣] . وقد أعلن ابن كلس إسلامه عام ٩٦٢ م ويعلق المستشرق ميشيل على ذلك بقوله : (إن طموحه الدنيوى ، أكثر من عقيدته الخالصة فى الإسلام ، كان الدافع وراء إسلامه)[٤] .

(وفى المغرب - كما يقول نفس المؤلف - اتصل ابن كلس بجماعة من اليهود حيث يشير ابن خلكان « هرب (ابن كلس) إلى المغرب واتصل بيهود » . كما يؤكد ذلك ابن القلانسى بقوله : « قصد يهوداً كانوا هناك مع المعز » وتدل الروايات أن يعقوب رغم إسلامه لم يقطع صلته باليهود أبناء جلدته . وقد استطاع بمساعدة هؤلاء اليهود أن يدخل حاشية المعز سنة ٩٦٨ م)[٥] .

والعجيب أن ابن كلس كان مهتماً بالفقه الإسماعيلى وشجع تدريسه بالأزهر كما ألف كتابا سماه الرسالة الوزيرية ، كما كان له كتاب فى الفقه الإسماعيلى

---

(١) المصدر السابق .

(٢) التلمود تاريخه وتعاليمه ، تأليف ظفر الإسلام خان ، دار النفائس ، ط ٣ ، ١٤٠٢ هـ ص ٥٢ .

(٣) مجلة الدراسات الفلسطينية ، جامعة بغداد ، مجلد ٢ ، عدد ٤ أيلول ١٩٧٣ مقال عن يعقوب بن كلس ، تأليف د . فاروق عمر فوزى .

(٤) المصدر السابق ، ص ٩٠ .

(٥) المصدر السابق ص ٩١ .

وكانت هذه الكتب وغيرها تدرس بصورة منتظمة فى الجامع الأزهر ، حتى أن الوزير نفسه كان يجلس أيام الجمع ليقرأ ويناقش الآراء حول المذهب الإسماعيلى ، كما أورد المؤلف(١) .

إن الهدف من وراء هذا العرض تنبيه الأمة إلى حقيقة الروابط التى تربط بين اليهود وغيرهم من مغتصبى أرض الشام وحقيقة الدور الذى يقومون به فى داخل بلاد المسلمين(٢) .

إن الذين يأخذون على عاتقهم تحرير أرض الشام وبيت المقدس وغيرها من بلاد المسلمين ، يجب أن يضعوا فى الاعتبار أن أعداءهم لن يتوقفوا عن العودة لاغتصاب تلك البلاد مرات ومرات . ومن هنا نستطيع أن نفهم واجبنا من حديث رسول الله ﷺ : « يا معاذ إن الله سيفتح عليكم الشام من بعدى من العريش إلى الفرات رجالهم ونساؤهم وإماؤهم مرابطون إلى يوم القيامة ، من اختار منكم ساحلا من سواحل الشام أو بيت المقدس فهو جهاد إلى يوم القيامة »(٣) .

عدم اليأس أو القنوط من رحمة الله ، فالوضع الذى تعيشه الأمة وضع عارض ، وليس بدائم ، ولم يمض عليه وقت طويل ، ولهم فيما عرضنا بشارة ، فبيت المقدس قد تحررت وعادت إسلامية بعد اثنتين وتسعين (٩٢) عام من الجهاد ، على عهد صلاح الدين يوسف بن أيوب وظلت كذلك على عهد الحكام الأيوبيين وحكام المماليك ، وعلى عهد آل عثمان وحتى قبيل نهاية الحرب العالمية الأولى . كما أن عكا قد استعيدت على عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، كما أن تصفية بقية الجيوب الصليبية وعودة بر الشام بأكمله إلى المسلمين تم بعد قرنين من الجهاد الإسلامى .

– حرص الحكام المسلمين فى مصر وبلاد الشام على أن تظل القدس بل

---

(١) المصدر السابق ص ٩٩ ، ١٠٢ .

(٢) دور اليهود فى الفرق الباطنية رسالة من إعداد أحمد محمد المغربى ، تحت اشراف الشيخ محمد الغزالى ، مقدمة إلى كلية الشريعة والدراسات الإسلامية جامعة أم القرى (قسم العقيدة) .

(٣) أخرجه القاضى مجير الدين الحنبلى المقدسى فى الأنس الجليل ، جـ١ ، ص ٢٠٣ .

وبلاد الشام كلها ، إسلامية رغم شراسة الهجمات الصليبية والتتارية .

– أن سلاطين المماليك الذين اتهمهم كتاب التاريخ وخاصة المستشرقين بالسكر والمجون والعربدة ، كانوا يعتبرون أن الجهاد الإسلامى ضد أعدائهم من الفرنج والتتار وغيرهم فريضة من الواجب إقامتها ، أى أنها لم تكن غائبة كما هى الآن فى عالمنا المعاصر ، كما أنهم كانوا يرون أن الخلافة من الواجب إقامتها لأنها هى التى تجمع شمل المسلمين ، وهى كالسياج الواق للأمة ، وحينما لاحظوا ضعف سلطان الخلافة ، قاموا بتدعيمها ومساندتها ، إيمانا منهم بأن الخلافة جزء من الإسلام .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت استغفرك وأتوب إليك .
وصلى اللهم على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم .



ملحـــق

رسالة صلاح الدين إلى نور الدين وذلك على أثر المؤامرة المخفقة غير الناجحة التى استهدفت إعادة ما يسمى بالحكم الفاطمى إلى مصر بعد إلغاء ما تسمى الخلافة الفاطمية وهى تثبت تآمر الأوروبيين والباطنية (الحشاشية) وبقايا البيت العبيدى المجوسى الرافضى والنصارى واليهود ضد شعب مصر المسلم وهى من إنشاء القاضى الفاضل .

قصر هذه الخدمة على متجدد سار للإسلام وأهله ، وبشارة مؤذنة بظهور وعد الله فى إظهاره على الدين كله ، بعد أن كانت لها مقدمات عظيمة ، إلا أنها أسفرت عن النجاح، وأوائل كالليلة البهيمة إلا أنها انفرجت عن الصبح . فالإسلام ببركاته البادية وفتكاته الماضية قد عاد مستوطناً بعد أن كان غريباً ، وضرب فى البلاد بجرانه بعد أن كان الكفر يتم عليه نحيلاً عجيباً . إلا أن الله سبحانه اطلع على أمرها من أوله ، وأظهر على سرها من مستقبله ، والمملوك يأخذ فى ذكر الخبر ، ويعرض عن ذكر الأثر .

لم يزل يُتوسم من جند مصر ومن أهل القصر ، بعدما أزال الله من بدعتهم ونقض من عرى دولتهم ، وخفض من مرفوع كلمتهم ، أنهم أعداء وإن تعدت بهم الأيام ، وأضداد وإن وقعت عليهم كلمة الإسلام ، وكان لا يحتقر منهم صغيراً ولا يستبعد منهم شراً كبيراً ، وعيونه لمقاصدهم موكلة ، وخطواته فى التحرز منهم مستعجلة ، لا تخلو سنة تمرّ ولا شهر يكر من مكر يجتمعون عليه ، وفساد يتسرعون إليه ، وحيلة يبرمونها ومكيدة يتممونها . وكان أكثر ما يتعللون به ويستريحون إليه المكاتبات المتواترة والمراسلات المتقاطرة إلى الفرنج – خذلهم الله تعالى – التى يوسعون لهم فيها سبل المطامع ، ويحملونهم فيها على العظائم والفظائع ، ويزينون لهم الإقدام والقدوم ، ويخلعون فيها ربقة الإسلام خلع المرتد

المخصوم . ويد الفرنج – بحمد الله – قصيرة عن إجابتهم ، إلا أنهم لا يقطعون حبل طمعهم على عادتهم . وكذلك ملك الفرنج ، كلما سولت له نفسه الاستتار فى مراسلتهم والتحيل فى مفاوضتهم ، سير (جرج) كاتبه رسولاً إلينا ظاهراً ، وإليهم باطناً ، عارضاً علينا الجميل الذى ما قبلته قط أنفسنا ، وعاقداً معهم القبيح الذى يشتمل عليه فى وقته علمنا . ولأهل القصر والمصريين فى أثناء هذه المدد رسل تتردد وكتب إلى الفرنج تتجدد .

ثم قال :

والمولى عالم إن عادة أوليائه المستفادة من أدبه ألا يسطوا عقاباً مؤلماً ولا يعذبوا عذاباً محكماً ، وإذا طال لهم الاعتقال ولم ينجع السؤال أطلق سراحهم وخلى سبيلهم ، فلا يزيدهم العفو إلا ضراوة ، ولا الرقة عليهم إلا قساوة . وعند وصول (جرج) فى هذه الدفعة الأخيرة رسولاً إلينا بزعمه ، ورد إلينا كتاب ممن لا نرتاب به من قومه يذكرون أنه رسول مخاتلة لا رسول مجاملة ، وحامل بلية لا حامل هدية ؛ فأوهمناه الإغفال عن التيقظ لكل ما يصدر منه وإليه ، فتوصل مرة بالخروج ليلاً ، ومرة بالركوب إلى الكنيسة وغيرها نهاراً ، إلى الاجتماع بحاشية القصر وخدامه ، وبأمراء المصريين وأسبابهم ، وجماعة من النصارى واليهود وكلابهم وكتابهم . فدسسنا إليهم من طائفتهم من داخلهم ، فصار ينقل إلينا أخبارهم ويرفع إلينا أحوالهم . ولما تكاثرت الأقوال ، وكاد يشتهر علمنا بهذه الأحوال ، استخرنا الله تعالى وقبضنا على جماعة مفسدة ، وطائفة من هذا الجنس متمردة ، وقد اشتملت على الاعتقادات المارقة والسرائر المنافقة . فكلاً أخذ الله بذنبه ، فمنهم من أقر طائعاً عند إحضاره ، ومنهم من أقر بعد ضربه ، فانكشف أمور أخر كانت مكتومة ، ونوب غير التى كانت عندنا معلومة ، وتقريرات مختلفة فى المراد ، متفقة فى الفساد .

ثم ذكر تفصيلاً حاصله : أنهم عينوا خليفة ووزيراً ، مختلفين فى ذلك ، فمنهم من طلب إقامة رجل كبير السن من بنى عم العاضد ، ومنهم من جعل ذلك لبعض أولاد العاضد ، وإن كان صغيراً . واختلف هؤلاء فى تعيين واحد من ولدين له . وأما بنو زريك وأهل شاور فكل منهم أراد الوزارة لبيتهم من غير أن يكون لهم غرض فى تعيين الخليفة .

ثم قال :

وكانوا فيما تقدم ، والمملوك على الكرك والشوبك بالعسكر ، قد كاتبوهم وقالوا لهم أنه بعيد والفرصة قد أمكنت ، فإذا وصل الملك الفرنجى إلى صَدْر أو إلى إيلة ثارت حاشية القصر وكافة الجند وطائفة السودان وجموع الأرمن وعامة الإسماعيلية وفتكت بأهلنا وأصحابنا بالقاهرة .

ثم قال :

ولما وصل (جرج) كتبوا إلى الملك الفرنجى أن العساكر متباعدة فى نواحى إقطاعاتهم وعلى قرب من موسم غلاتهم ، وأنه لم يبق فى القاهرة إلا بعضهم ، وإذا بعثت أسطولاً إلى بعض الثغور أنهض فلاناً من عنده وبقى فى البلد وحده ، ففعلنا ما تقدم ذكره من الثورة .

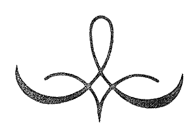
ثم قال :

وفى أثناء هذه المدة كاتبوا سناناً صاحب الحشيشية بأن الدعوة واحدة والكلمة جامعة ، وأن ما بين أهلها خلاف إلا فيما لا يفترق به كلمة ، ولا يجب به قعود عن نصرة ، واستدعوا منه من يتمم على المملوك غيلة ، أو يبيت له مكيدة وحيلة . والله من ورائهم محيط . وكان الرسول إليهم عن المصريين خال ابن قرجَلة المقيم الآن هو وابن أخته عند الفرنج .

ولما صح الخبر وكان حكم الله أولى ما أخذ به ، وأدب الله أمضى فيمن خرج عن أدبه ، وتناصرت من أهل العلم الفتاوى ، وتوالت من أهل المشورة بسبب تأخير القتل فيهم المراجعات والشكاوى ، قتل الله بسيف الشرع المطهر جماعة من الغواة الغلاة ، الدعاة إلى النار ، الحاملين لأثقالهم وأثقال من أضلوه من الفجار ، وشنقوا على باب قصورهم وصلبوا على الجذوع المواجهة لدورهم ، ووقع التتبع لأتباعهم ، وشردت طائفة الإسماعيلية ونفوا ، ونودى بأن يرحل كافة الأجناد وحاشية القصر وراجل السودان إلى أقصى بلاد الصعيد . فأما من فى القصر فقد وقع الحوطة عليهم إلى أن ينكشف وجه رأى يمضى فيهم ، ولا رأى فوق رأى المولى . والله سبحانه مستخار وهو المستشار ، وعنده أهل العلم من

تطيب النفس بتقليده ، وتمضى الحدود بتحديده . ورأى المملوك إخراجهم من القصر ، فإنهم مهما بقوا فيه بقيت مادة لا تنحسر الأطماع عنها ، فإن حبالة للضلال منصوبة ، وبيعة البدع محجوجة[1] .

ومما يطرف به المولى أن ثغر الإسكندرية على عموم مذهب السنة فيه ، اطلع البحث أن فيه داعية خبيثاً أمره ، محتقراً شخصه ، عظيماً كفره ، يسمى قديد القصاص ، وأن المذكور ، مع خموله فى الديار المصرية ، قد فشت فى الشام دعوته وطبقت عقول أهل مصر فتنته ، وأن أرباب المعايش فيه يحملون إليه جزءاً من كسبهم . والنسوان يبعثن إليه شطراً وافياً من أموالهن . ووجدت فى منزله بالإسكندرية ، عند القبض له والهجوم عليه ، كتب محرزة فيها خلع العذار وصريح الكفر الذى ما عنه اعتذار ، ورقاع يخاطب بها فيها ما تقشعر منه الجلود ، وكان يدعى النسب إلى أهل القصر ، وأنه خرج منه صغيراً ، ونشأ على الضلالة كبيراً ، وبالجملة فقد كفى الإسلام أمره وحاق به مكره وصرعه كفره[2] .



---

(١) هكذا وردت هذه الكلمة بالأصل ، ولعل الصواب (محجوبة) كما يقول المؤلف .

(٢) كتاب الروضتين لأبى شامة جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٣ - ٥٦٦ ، وقد وردت مقتضيات مختصرة من هذه الرسالة الشهيرة فى مفرج الكروب لابن واصل جـ ١ ، ص ٢٤٨ - ٢٥١ ولكن نص أبى شامة أوفى وأتم وأكمل .

مصادر ومراجـع البحـث

المصادر :

(أ) القرآن الكريم وما يتصل به من كتب التفسير :

١ - جامع البيان عن تأويل آى القرآن . تأليف أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ، دار المعرفة ، بيروت ١٣٩٢ هـ .

٢ - الجامع لأحكام القرآن . تأليف أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى ، دار إحياء التراث ، بيروت ١٩٦٦ م .

٣ - تفسير القرآن العظيم . تأليف الإمام الحافظ عماد الدين أبى الفداء إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى ، دار الفكر ، بيروت .

(ب) سنة النبى محمد ﷺ وشروحها ، ومنها :

- صحيح أبى عبد الله البخارى ، مطبعة المشهد الحسينى ، القاهرة .

- فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، تأليف أحمد بن على بن حجر العسقلانى (٧٧٣ - ٨٥٢ هـ) دار المعرفة ، بيروت .

(ج) ما كتبه المؤرخون المسلمون :

- البداية والنهاية . تأليف الإمام الحافظ عماد الدين أبى الفداء إسماعيل ابن كثير القرشى ، مكتبة المعارف . بيروت .

- التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية (بالموصل) تأليف على بن أبى الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى المعروف بابن الأثير الجزرى (٥٥٥ - ٦٣٠ هـ) تحقيق عبد القادر أحمد طليمات ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة .

- كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية . تأليف الشيخ الإمام الفاضل شهاب الدين أبى محمد عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسى الشافعى ، دار الجيل ، بيروت .

- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . تأليف جمال الدين أبى المحاسن ، يوسف بن تغرى بردى الأتابكى (٨١٣ - ٨٧٤ هـ) ، وزارة الثقافة ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة .

- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين . تأليف بهاء الدين أبى المحاسن يوسف بن رافع بن تميم شهر جاين شداد ، وتحقيق د . جمال الدين الشيال ، ط ١ ، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٦٢ .

- الكامل فى التاريخ ، تأليف ابن الأثير الجزرى (سبق ذكره) .

- سنا البرق الشامى مقوم الدين الفتح بن على البُندارى (وهو مختصر البرق الشامى) للعماد الأصبهانى ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ١٩٧١ ومكتبة الخانجى ، مصر .

- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، للمؤرخ الفقيه الأديب أبى الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى (ت ١٠٨٩ هـ) المكتبة التجارية للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت .

- تاريخ أبى يعلى حمزة ابن القلانسى المعروف بذيل تاريخ دمشق ، مكتبة الآباء اليسوعيين ، بيروت ١٩٠٨ .

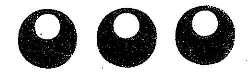
- تهذيب تاريخ دمشق الكبير للإمام الحافظ المؤرخ أبو القاسم على ابن الحسن الشافعى المعروف بابن عساكر (ت ٥٧١ هـ) ، بيروت .

المراجع :

- عماد الدين زنكى . تأليف الدكتور عماد الدين خليل ، ط ٢ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤٠٢ هـ .

- نور الدين محمود الرجل والتجربة . تأليف الدكتور عماد الدين خليل ، دار القلم ، ط ١ ، دمشق ، ١٤٠٠ هـ .

- المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي . تأليف الدكتور عماد الدين خليل ، ط ١ ، مكتبة المعارف ، الرياض ١٤٠١ هـ .





عن « الحركة الصليبية » د/ سعيد عاشور

عن دراسات فى تاريخ الحروب الصليبية تأليف دكتورة عفاف سمير صبرة ، عن « الحركة الصليبية » د/سعيد عاشور

الفهرســـت

الموضـــــوع	الصفحة

رقم الإيداع ٤٩٣٧ / ٨٧

التر قيم الدولي ٤ ـ ١٧ ـ ١٤٢١ ـ ٩٧٧